القاهرة الكبرى
دراسة فى جغرافية المدن

أ.د. جمال حمدان *

إذا عدت المدن العواصم العظمى فى العالم ، فالقاهرة واردة بالتأكيد فى العشرة الأولى أو العشرة ونيف . وهى المدينة الأولى المطلقة فى قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى آفاق القارة الأفريقية إلى تخوم الالب ووسط آسيا . بل إن بضعة لا يستهان بها من الدول الأفريقية لتقل سكانا - سكان كل منها أقصد - عن حجم القاهرة كثيرا أو قليلا ، وذلك حتى دون نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف سكان العواصم الأفريقية الخمسين مجتمعة !

وإن حصرت العواصم المخضرمة العريقة فى الدنيا ، فلعل القاهرة «وأسلافها أو بأسلافها» هى أم المدن جميعا ، وعلى أية حال فقليلة جدا هى المدن التى يمكن كدمشق أن تنافسها فى هذه الصدارة . وحتى نتمثل هذا البعد الزمانى السحيق بشىء من التجسيد الذهنى ، يكفى أن نقول إنه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من عواصم غرب أوربا ، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم الجديد مجتمعة ..

---

* ننشر هذا المقال إحياء لذكرى هذا العالم المصرى الكبير...

أما إذا اعتبرنا الوزن الحضارى والنفوذ السياسى والوقع والاشعاع القومى والفكرى ، فما من عاصمة فيما نظن لها فى دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية وسيطرة أو توجيه ، بل وإلى حد الإفراط ربما .. ولقد يختلف علماء المدن حول السؤال القديم : هل العواصم هى أكبر وخير مايمثل ويجسم روح بلدها وكيانه وذلك باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره وأقاليمه ، أم هى بطبيعتها العالمية الكوزموبوليتانية بالضرورة وبما تضم من جاليات وأجناس أجنبية وبما تتطلع دائما إلى الخارج تؤلف فيما بينها طبقة «كاستية» خاصة من المدن فى العالم أشبه ببعضها البعض منها بصميم أقطارها المحلية؟ مهما اختلف الرد ، فلا خلاف فى حالة القاهرة ، ولا يمكن له أن يقوم ، فهاهنا عاصمة تستقطر ، وتسقطب روح الوطن وترمز إلى جوهر كيانه حضاريا وماديا ، جغرافيا وتاريخيا ، ربما كما لاتفعل عاصمة أخرى .

هذه إذن هى القاهرة : تاريخ مفعم مجمد أو محفوظ ، كل حجر فيها مشبع بعبق الماضى وعرقه ، وكل شبر منها يحمل بصمات الإنسان ، إنها كبيت جماعى كبير ، وكمنطقة مبنية لامثيل لكتلتها فى مصر - عمل فنى من مقياس ضخم مهندسه وساكنه هو المصرى . وهى بهذا أكثر أو اكثف رقعة من اللاندسكيب الحضارى فى مصر «تبشيرا» وحملا للطابع البشرى ، وبنفس الدرجة أبعدها عن ملامح الطبيعة الخام واللاندسكيب الطبيعى الغفل للوادى ..

ورغم هذا كله ، فإن القاهرة من أسف من أقل العواصم حظا فى دراسات المدن العلمية الحديثة . كثيرة هى لاشك الكتابات الاكاديمية والشعبية والمتاحة عن هذه المدينة الخالدة ، ولكن الغالب عليها إما التاريخ عموما أو تاريخ العمران أو الأثار خصوصا ، وربما أضفنا بعض كتابات «هواة المدن» من الرحالة أو الأدباء أو الصحفيين ، لاسيما منهم الاجانب ..

أما دراسة المدينة ككل حى متعضون فوار محدد السمات والقسمات ، كمجتمع مركب متلاطم مضطرم يضطرب فى وعاء جغرافى واضح المعالم بارز التضاريس ، أما دراسات علم اجتماع المدن وجغرافية المدن بوجه خاص ، أما مورفولوجية القاهرة الكبرى ، تركيبها الوظيفى ، ايكولوجيتها البشرية ، نموها السكانى وزحفها العمرانى وضوابطة ،

هيدرولوجية النقل ومشاكله الخانقة المختنقة ، الطبوغرافيا الاجتماعية والتوزيع الجغرافى للطبقات والحرف ، اقليم المدينة وحدوده ، التخطيط المستقبلى ومؤشراته .. الخ ، أما هذا كله فما زال فراغا مقلقا وأرضا بكرا «ولاتقول مجهولة» منذ ظهرت أول وآخر محاولة جادة فى هذا الميدان الخضم ، ونعنى بها دراسة كليرجية [1] فى الثلاثينات ، والتى دفع بها نمو العاصمة المدى الانفجارى الحديث إلى زوايا المكتبة التاريخية بدرجة أو بأخرى .

الموقع والموضع

والموقع هو ذلك الإطار الجغرافى الكبير الذى تحدده العلاقات المكانية العريضة والقيم الاقليمية النسبية التى تتعدى كثيرا جدا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل إلى أبعاد قارية برمتها ، لذا فهو فكرة متغيرة على العصور ، وبالتالى فقليل من المواقع مايعد خالدا فى التاريخ . أما الموضع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التى تقوم عليها الكتلة المبنية مباشرة ، وهو لايتغير إلا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها إلى رقعة أخرى .

والقاهرة تحتل موقعا فريدا فى مصر وخارج مصر ، ففى إطار التقاء الدلتا بالصعيد، فى عقدة الوادى وصرته ، موقع حتمى خالد ظلت العواصم تدور فيه ، قد تنتقل من موضع إلى موضع ، ولكنها لاتخرج عنه إلا فى فترات عابرة وربما قيل شاذة فى التاريخ القومى ، مثله فى هذا مثل خاصرة الرافدين فى العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل إلى قطيسفون إلى بغداد ، ومثل تونس على رأس البلد وعلى خاصرة البحر المتوسط حيث تناسلت أو تناسخت قرطاجنه وتنس وتونس .

فموقع القاهرة إذن هو خاصرة مصر ، مجمع الوادى والفرعين ، وملتقى الصحراوين ، كأنما القطر كله على ميعاد فيه ، ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسى . فمن منف الفرعونية «فى منطقة البدرشين حاليا» إلى أون أو هليوبوليس «عين شمس ومصر الجديدة الآن» إلى بابليون «مصر القديمة» إلى الفسطاط العربية ثم إلى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية ، كل أولئك حلقات

(1) Marcel Clerget, Le Caire, Etude de Geographie Urbaine et d'Histoire Economque, Le Caire , 1934, 2 Vol .

متباينة فى سلسلة جغرافية أو نسل اقليمى واحد أساسا .

وإذا كانت العاصمة قد عرفت إطارا اقليميا مختلفا ومتطوحا أكثر من مرة ، كطيبة «الأقصر» فى الجنوب الأقصى ، وافاريس قاعدة الهكسوس فى شرق الدلتا ، والاسكندرية البطلمية الرومانية ، فإنما كانت الأولى فى المرحلة التكونية للدولة المصرية ، وكانت الثانية انحرافة غزو اجنبى بحت ، بينما أتت الثالثة انحرافة استعمارية لامبراطورية بحرية على الجانب الآخر من المتوسط ، وظلت حينا أشبه بجزيرة غريبة من الارخبيل اليونانى نقلت والصقت بالساحل المصرى سياسيا وبشريا .

والانتقال من منف إلى الفسطاط يمثل نقطة انتقال هامة فى التوجيه الطبيعى والسياسى : فهو انتقال من الضفة الغربية إلى الشرقية ، ويشير إلى أن منف ، التى كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلما كانت اسهل اتصالا بالصعيد «حيث المعمور الزراعى يقع فى سواده الأعظم على ضفته الغربية» ، كانت عموما أدنى إلى التوجيه المصرى المحلى..

أما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقا مع توجيه الفتح العربى الجديد ، الذى هو نحو الخارج أولا وبرى الطابع ثانيا ، وذلك بعد أن أصر الخليفة عمر على قائده عمرو «ألا يجعل بينه وبين المسلمين ماء» فاختار موضع الفسطاط بدلا من الاسكندرية ومن الجيزة كما كان البعض قد اقترح عليه ، ومن هنا أصبحت الفسطاط فى موضع أشبه بالكوفة والبصرة فى العراق ، كلها ترسم مروحة حول رأس الجزيرة العربية ، وكل منها يقع على نهاية واد صحراوى يخرج منها أو قربها وينتهى إلى ماء نهر كبير ولكن أساسا دون أن تعبره .

من هناك أيضا بدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر أمام الفسطاط لاحظ اشتقاق الأسم من الاجتياز والمجاز - أى همزة الوصل بين العاصمة والصعيد ، وورثت بذلك ظل منف - الظل فقط - ولذا ظلت دائما وحتى بدايات قرننا هذا حلة صغيرة مجمدة . وفى هذا الدور كانت جزيرة الروضة اشبه بنصف جسر طبيعى بين الجيزة والفسطاط ، يكمله عادة نصف آخر معلق من السفن الثابتة ..

ومن الضرورى هنا أن نذكر أن موضع الفسطاط فيما هو اليوم نهاية مجمع القاهرة

المدنى جنوبا انما يمثل ماكان فى حينه اضيق واسهل عبور للنهر بين ضفتيه ، فى عصر كان النهر يمثل عقبة مواصلات لايستهان بها ، ذلك أن شاطىء النيل الشرقى لم يكن يتبع حده الحالى ، بل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو الشمال الشرقى إلى قلب القاهرة الحالى فى الشمال ، بحيث كان الثلث أو المثلثات العربى من الرقعة الحالية تقريبا ماء وجزءا من مجرى النيل .

ومعنى هذا أيضا أن الضفة الشرقية لم تكن بمثل منها يمثل إضافة لليابس تكونت بالتدريج عبر القرون اتساعها الحالى ، بل كانت أقل مساحة ، والمثلث الغربى نتيجة لارسابات النهر الطميية ، بينما أخذ النهر نفسه يتراجع نحو الغرب بانتظام ، وهذه هى الحركة التاريخية التى تعرف بهجرة مجرى النيل نحو الغرب ، أما تلك الأرض التى انحسر عنها النهر فلم تكن ناضجة فيزيوغرافيا على الفور ، وإنما ظلت مواطئ رطبة تملؤها البحيرات والخلجان والمضاحل ولاتصلح للسكنى والتعمير إلا بعد قرون من الإرساب والنضج والصلابة ، فمثلا لم تظهر منطقة الازبكية كأرض صلبة إلا منذ الفاطمية ، ومنطقة باب اللوق إلا منذ الايوبية .

وعند هذا الحد ، يمكننا أن نكون تصورا عريضا لموضع منطقة القاهرة عامة ، فالضفة الشرقية تحدها سلاسل تلال تقترب من النهر فى الجنوب وتنفرج بعيدا عنه كلما اتجهنا شمالا هى جبل المقطم الذى ينتهى فى الشمال بالجبل الاحمر قرب العباسية ، وحواف هذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ متر فى الجنوب ، ٨٠ مترا فى الشمال . وتخرج من السلسلة عدة بروزات ناتئة نحو الغرب كتلول ثانوية هى من الجنوب إلى الشمال تلول عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة .

فإذا عرفنا أن شاطىء النيل هنا يقع عموما على منسوب نحو ٢٠ مترا ، أدركنا أن الضفة الشرقية ، التى تتسع كالمروحة شمالا وتضيق جنوبا ، ينحدر سطحها كلما اتجهنا من الصحراء إلى النهر ، أى أن القطاع الشرقى منها مرتفع والغربى منخفض - كلمة بولاق مثلا أصلها بلاق وتعنى لغة «الأرض المنخفضة» - بمثل مأن الشرقى أقدم جدا فى تكونه بينما الغربى أحدث ويزداد حداثة كلما اقتربنا من النهر .

وعلى العكس من هذا الضفة الغربية ، فليس ثمة حائط تلى ، بل تمتد الأرض الزراعية حتى هامش الصحراء ، والأرض تنحدر لانحو النهر بل نحو الصحراء ، ولكنه انحدار طفيف جدا لايقدر إلا بالبوصات حيث يصل فى الضفة الشرقية إلى عشرات الامتار ، إلا أنه مع ذلك واضح للعيان كما يمكن للناظر أن يرى من فوق كوبرى الزمالك تجاه ميت عقبة .

وترتيبا على ذلك كله ، فإن ارض الضفة الغربية سهلية منبسطة بعامة وكلها كانت أرضا زراعية ، بينما الشرقية منحدرة تصلها نهايات الاودية الصحراوية والتلية التى تعرف السيول المفاجئة والتى يعرفها أكثر سكان الاحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين تتحول شوارعهم المائلة إلى خنادق مائية مؤقتة ، وبينما تمتد شوارع الضفة الغربية «باستثناء طريق الهرم» كطرق مسطحة موحدة المستوى ، ينفرد القطاع الشرقى من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول إلى درج حقيقى يذكرنا بشوارع المدن الجبلية فى أوربا وبخاصة حوض البحر المتوسط .

أخيرا وعموما ، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة إذا وضعت فى الميزان ؟ ثمة مزايا لاشك واضحة ، فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتل ، وهى مفتوحة من الشمال فقط . ثم إن وجود التلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر ، مثلما يوفر لها النهر خامة الطوب . وارتفاع القطاع الشرقى يعوض عن البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحى وحركته النشطة المنشطة ، فى حين يتمتع القطاع الغربى بجبهة مائية منعشة ومرطبة ، وأخيراً فإن كثرة الجزر كثرة غير عادية فى المنطقة كنتيجة لتغير مستوى الإرساب فجاة مع الانتقال من الوادى الضيق إلى الدلتا الواسعة ، هذه الكثرة توفر قواعد هامة لعبور النهر ولنمو المدينة .

نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

فى هذا الإطار الطبيعى الملائم إذن نستطيع أن نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربى ، حين نشأت الفسطاط فى أقصى الجنوب ، قرب النهر والتل معا ، فانما كانت مدينة حربية أساسا ، تنشد موضع حماية معلقا على التل ومحصنا بالطبيعة .

فكانت فى النتيجة مدينة اكروبوليس ، أى مدينة قمة تل . (ومن الطريف ، وهو بالتأكيد أكثر من صدفة ، إن ديزموند ستيوارت مؤلف كتاب القاهرة يذهب إلى حد تشبيه جامع ابن طولون على جبله بالبارثينون على الاكروبول فى أثينا !) وحين بنيت العسكر إلى الشمال الشرقى منها ، ثم القطائع على جبل يشكر فى نفس الاتجاه ، وأخيراً القاهرة المعزية التى بدأت كمدينة ملكية محرمة ، فإنها لم تغير تلك الصفة الاكروبولية العسكرية أساسا ، فكانت جميعها تلتزم السفوح التلية العالية في الشرق وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبة ، وكل ماحدث أنها كانت تزحف من موضع جنوبى إلى موضع أكثر شمالية .

ومن الطريف ، مادمنا قد تحدثنا عن المدينة المسورة وسور المدينة ، أن نلاحظ أولا أن مصر فى هذا الصدد شذوذ عالمى نادر ، وثانيا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر فى مصر نفسها .. ففى العصور الوسطى وعهد الاقطاع ، كانت المدينة المسورة هى القاعدة العالمية طلبا للحماية من الأخطار الخارجية والصراعات الاقطاعية الداخلية .. ولكن حالات ثلاثاً فقط فى العالم لم تكد تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الاقطاعى منذ وقت مبكر : تلك هى بريطانيا واليابان ومصر ، وكلها جزر حقيقة أو مجازا على ضلوع قارة يفصلها عنها بحر الماء أو بحر الرمل . لقد كانت الصحراء كما يعبر لويس ممفورد هى السور الطبيعى لمصر . ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تماما . فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجى دائما والصراع الداخلى كذلك ، فكان السور ضرورة استراتيجية منذ البداية وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة، وذلك حين لم تعرف المدن الاقليمية المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانى الثغور .

هذا عن نمو المدينة فى حضن التلال . وفى المراحل اللاحقة فقط بدأ يضاف إلى التوسع نحو الشمال ، توسع فى اتجاه جديد نحو الغرب ، فمع نمو الارض الطميية ونضجها الفيزيوغرافى على حساب النهر المتراجع غربا ، بدأ الاستثمار الزراعى ثم البنائى العمرانى يزحف غربا ، لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتورات العالية إلى الكنتورات المنخفضة بالتدريج ، وبعد أن كانت تتشبث بضلوع التل ورأسه وتخشى الاقتراب من النهر حيث

خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه river - shy أخذت تتحول من مدينة أكروبوليس معلقة إلى مدينة نهرية شاطئية مستوية ، لقد تحررت المدينة من عقال الجبل وإسار السور معا وفى نفس الوقت .

وفى المحصلة ، فلقد أخذت رقعة العمران والمنطقة المبنية تنمو فى اتجاهين لافى اتجاه واحد ، شمالا وغربا ، أو قل على محور شمالى غربى عموما ، وتلك هى الحركة التاريخية الاساسية والمفتاح فى نمو القاهرة ، وهى حركة مطردة وإيقاع ثابت ، مهما توقفت المدينة أو انتكست فى مراحل الجمود أو الانكماش .

وحتى أيام الحملة الفرنسية ومحمد على ، كان خط الحسينية باب الشعرية بولاق يمثل أقصى حدود امتداد المدينة شمالا . دون أن يعنى هذا بالضرورة أن كل ماإلى الجنوب كان عمرانا كاملا وسكنى متصلة ، بل كانت هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقة المبنية ، ودون أن يعنى كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف إلى الشمال . ولقد كان محمد على هو الذى اخترق ذلك الحد وتعداه شمالا نحو شبرا ، كما كان عباس هو الذى بدأ العباسية عبر الحسينية . ومع ذلك فقد كان محمد على نفسه هو الذى بدأ الاتجاه إلى جاردن سيتى لتكون سكنا راقيا لعائلته ، بينما أن حى الاسماعيلية لم يبدأ إلا أيام اسماعيل والتوفيقية أيام توفيق .

وبالمثل فإن النمو الأساسى فى نطاق مثل الفجالة - الظاهر - غمرة - السكاكينى أى جنوب خط المترو ومحطة مصر ، لم يتم حقيقة إلا بعد ١٩٠٠ . وأحدث من ذلك كله بالطبع نمو الشمال الشرقى ابتداء من الدمرداش ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ومنشية البكرى حيث يتفرغ إلى شعبتين : إلى الزيتون فالحلمية فالمطرية فعين شمس شمالا ، وإلى مصر الجديدة جنوبا ، وهذا يصدق أيضا على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج إلى الساحل وشبرا (بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد) .

ونفس الشىء يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجيزة مدينة متواضعة إلى بداية القرن الحالى ، وظلت تنمو شمالا ببطء كشريط يزداد سمكا وعمقا ، إلى أن دخلت فى موجتها المدية مع وبعد الحرب الأخيرة حتى وصلت عبر الدقى والعجوزة إلى إمبابة فى

عروض تناظر عروض حى الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد . وبعد أن كان عمران الجيزة يقع دائما «جنوب» القاهرة ، اصبح يقع «غربها» نصا . وهنا نلاحظ أن نمو الضفة الغربية باستثناء بندر الجيزة . هو نمو طارىء حديث جدا إذا قورن بالضفة الشرقية عموما.

وهنا لاتتأكد لنا حقيقة واحدة وهى أن النمو كله ، على الضفتين مندفع نحو الشمال وإنما تتأكد كذلك حقيقة أخرى لاتقل مغزى وخطرا وهى أن النمو متوقف تماما إلى درجة الشلل فى الجنوب ، وفى الضفتين أيضا على السواء ، فلم تتعد مصر القديمة حدودها المزمنة قرب أثر النبى ، وكذلك الجيزة القديمة «البندر» وإذا كانت المعادى وحلوان على الضفة الشرقية تمثلان نموا حديثا وعصريا ، حلوان منذ إسماعيل كمدينة استشفاء ، والمعادى منذ توسعت وتوطدت جالية الاستعمار البريطانى ، فإنها تمثل ضواحى منفصلة عن جسم المدينة ولاتنقض القاعدة بقدر ماتؤكدها ، وقل الشيء نفسه عن نمو منطقة الهرم حديثا ، فهى أقرب إلى النمو الشريطى الخطى على اطراف المدن .

Ribbon develop ment

والخلاصة أن الحدود الجنوبية لجسم القاهرة تمثل الثوابت الاستاتيكية Constants فى حركة المدينة ، حيث تمثل الحدود الشمالية العوال المتغيرة النامية والدينامية Variables وأن فى مجرد الفرق فى التسمية بين مصر القديمة فى أقصى الجنوب ومصر الجديدة فى أقصى الشمال لتلخيصا بليغا لكل تاريخ وحركة النمو داخل هذا المجمع المدنى الحافل.

على أن ليس يكفى أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلى وحده من اختناقه فى الجنوب وانفساحه السهلى فى الشمال ، فلا شك أيضا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وانتاج ، وانفتاحها بما يقع خلفها من موانى واتصالات خارجية تجارية . تمثل لاشك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعتها بالخامات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصريف الخارجى . بل قد يمكن أن يقال أن نمو القاهرة شمالا فى لسانيه الاساسيين شمالا وشمالاً شرقا هو انعكاس بعيد فى نهايه المطاف لجاذبية الاسكندرية والسويس على الترتيب ..

وإذا كان التناقض فى قوة النمو واضحا صارخ الوضوح مابين الشمال والجنوب ، فهو

على الأقل حقيقة مؤكدة مابين الشرق والغرب أيضا . ففى الشرق حائط المقطم يقف حائلا منذ العصور الوسطى يخنق كل امكانيات النمو ، حتى فى الوقت الحالى لايمثل مشروع مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية ، أما غربا فإن المدينة استعمرت النهر نفسه ، أعنى جزيرتى الجزيرة والروضة ثم عبرته لتجعل من الضفة الغربية شقيقة صغرى للشرقية تناظرها طولا وإن دقت عرضا ، ولتجعل من الجمع المدنى كله مدينة ضفتين تمتطى النهر كما يقال à cheval .

ومن المحتمل فى المستقبل أن يرجع معدل النمو فى الضفة الغربية معدله فى الضفة الشرقية نسبيا ، لان الأولى هى جبهة ريادة العاصمة الآن وطاقة أو كوة رئيسية لتمددها ، ويمكن أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى فنقول إن دفعة النمو إذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالى فقد تتحول فى بضعة عقود إلى المحور الغربى ، وقد وصل عمق الضفة الغربية اليوم إلى بولاق الدكرور فى الجنوب وميت عقبة فى الشمال ، وربما واصل نموه إلى الخط الشريانى للسكة الحديدية بين الوجهين .

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة إذ تزحف شمالا فى موجتها المدية العاتية ، وبسرعة العاصفة فى العقود الاخيرة خاصة ، مع ثباتها المطلق أو شبه المطلق فى الجنوب ، فهى إنما تنتقل بالتدريج مبتعدة عن الصعيد وملتحمة بالدلتا . إن الأصل فى القاهرة - عاصمة - أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية وكضابط إيقاع بين أجزاء الوطن وأقاليمه ، تنتمى إلى الدلتا بقدر ماتنتمى إلى الصعيد ، ولكن الواقع المحقق الآن أنها أدخل فى فلك الدلتا وأشد التصاقا بها وزحفا اليها ..

ذلك وكأنما هى تزحف تدريجيا مع رأس الدلتا (التى كانت ازاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية) والتى تزحف شمالا باستمرار . أو كأنما هى تزحف مع مصر الحديثة عموما ، حيث يقتصر المعمور فى أقصى جنوب الصعيد (منذ خزان أسوان ولكن بالاخص مع السد العالى) ويتمدد فى أقصى شمال الدلتا (مع استصلاح البرارى الذى سيصل بالأرض الزراعية قريبا إلى سيف البحر) أو أخيرا كأنما هى ترمز إلى تناقص وزن الصعيد النسبى فى اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس إلى الدلتا (الصعيد الان لايقدم إلا ٣٨٪ من عائد الزراعة المصرية) ..

وهذا مايقودنا إلى وجه شبه آخر فى الشكل بين نمو القاهرة الكبرى وامتداد الأرض السوداء فى مصر ... إذا أنت نظرت إلى خريطة القاهرة فلن تخطىء بالتأكيد شكلها الكأسى الخاص ، فهى أولا وأساسا مدينة طولية أكثر منها عرضية ، فبينما يصل امتدادها على المحور الطولى إلى نحو ١٣ كم . لاتزيد فى أقصى عرض لها عن ٧ كم ، وتقل عن ذلك كثيرا فى المتوسط وقد تصل إلى حد الاختناق فى أقصى الجنوب ، وبينما يأخذ النيل محورا شماليا جنوبيا بعامة ، ينفرج الخط الواصل بين مصر القديمة ومصر الجديدة إلى أقصى حد ممكن .. ويلاحظ أن جبهة الزحف شمالا لاتمثل خطا واحدا منتظما ، بل يتقعر فى وسطه لأنه يتكتل أساسا فى محورين هما كتلة مصر الجديدة - عين شمس فى الشمال الشرقى وكتلة شبرا - روض الفرج فى الشمال ، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحذاء النيل ، وبين هذين اللسانين برزخ أو خليج عريض من الأرض الزراعية ..

الشكل إذن مروحى بوضوح . تكمن خلفه ضوابط الموضع وتضاريسه الأولية ، سواء أخذنا الضفة الشرقية على حدة أو إذا أضفنا إليها الغربية . وهذه إذن مروحة منشورة مفتوحة ، يدها فى الجنوب . وهذا يذكرنا على الفور وإن يكن على تصغير شديد بشكل الدلتا نفسها . وحتى لسانا النمو الشماليان السابق ذكرهما يكملان التشبيه بفرعى دمياط ورشيد ! بل إننا إذا أضفنا الذيل المبتور من النمو المتقطع على استحياء فى الجنوب عبر المعادى وحلوان كيد قصيرة لمروحة العاصمة ، لاقترب الشكل جميعا من هيئة مصر عموما حيث يرسم الصعيد يدا طويلة جدا ، ولكنها ليست قوية جدا ، لمروحة الدلتا . إن عاصمتنا لاتلخص كيان مصر البشرى فحسب ، وإنما تختزل شكلها الجغرافى أيضا فى بقعة أو فى كبسولة ..

ماذا إذن عن توسع وغو القاهرة الرأسى ، بعد ذلك النمو الأفقى الطاغى ؟ معه جنبا إلى جنب تقدم بايقاع متناغم .. فتاريخ المدينة لم يكن تمديدا للاطراف فحسب .، بل وتكثيفا للداخل أيضا . ولقد أتى على القاهرة حين من الدهر كانت تتخلل منطقتها المبنية فجوات وفراغات ضخمة من الخراب أو الخواء ، وحتى أوائل القرن الماضى كان جسم المدينة مبعثرا مخلخلا غير ملموم ، ولكنه أخذ يلتئم بالتدريج . وبينما كانت الاطراف تنمو كفيللات مبعثرة وسط الحقول ، كانت الفيللات فى الوسط تتحول إلى عمارات ،

والعمارات تتناطح وتتلاحم وتتسابق إلى أعلى كالاشجار فى الغابة تتصارع من أجل الوصول إلى الشمس ، وبين هذا وذاك جميعا توشك المدينة أن تغص وتختنق ولاتكاد تجد رئة خضراء أو مساحة مكشوفة ، والناظر إلى خريطة المنطقة المبنية اليوم فى القاهرة قد يحسب خطأ أن بها فراغات غير مستغلة كتلك التلول المتقدمة فى عين الصيرة وزينهم وقطع المرأة فى شرق المدينة ، ولكن الحقيقة أن هذه حدود المنطقة المبنية هناك ، وإنما تفصل بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات ، أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لاانقطاع لها.

وفى ختام هذا الحديث عن النمو ، لابد لنا من وقفة تجيب على سؤال ملح : ما الذى أطلق المدينة من عقالها ، خاصة منذ القرن الماضى ، كمارد خرج من القمقم ؟ لقد ظلت المدينة الوسيطة تحتل رقعة متواضعة محدودة فى شرق المنطقة ، ولم تخرج من قوقعتها التاريخية والجغرافية إلا فى أواخر العصور الوسطى - وعلى استحياء ذلك . ثم مع القرن الماضى فقط تمددت تمددا جديدا تماما صوب النهر ، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد فى العقود الأولى من هذا القرن ، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية وحدها انفجرت فى موجة مدية حقيقية هى منذ الثورة أسرع وأعتى منها فى أى وقت مضى .. ونحن نستطيع أن نصنف هذه الفترت فى تاريخ حياة المدينة إلى مراحل ثلاث أساسية : الأولى هى المرحلة النووية ، والثانية هى التكوينية ، والأخيرة هى الانفجارية .

ولعل رقعة القاهرة قد نمت فى القرن السابق للحرب الثانية أى فى المرحلة التكوينية أكثر مما نمت طوال الالف عام منذ نشأتها العربية أى فى المرحلة النووية ، بينما قد يزيد نموها بسهولة فى مرحلتها الانفجارية فى ربع القرن الأخير عنه طوال القرن الاسبق عليه . لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الابوية ، وانساحت من المقطم إلى الهرم ، ومن الصحراء إلى الصحراء . ومن حلوان إلى شبرا الخيمة ، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسى هى سور المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينة بلا حدود ، ومن السهل أن نتتبع انعكاس هذا كله رقميا فى تعداد السكان ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن المدينة التى بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون ، قد تعدت الآن الخمسة ملايين (مارس ١٩٦٩) .

مرة أخرى : لماذا ، وماهو الزناد الذى أطلق هذا االنمو المريد ؟ ثمة على الترتيب

عاملان ضابطان أو محركان ، لايكفى أين منهما وحده تفسيرا إلا لمرحلة محددة ، الأول هو الموضع والثانى هو المواصلات . فمن السهل أن نرى أن النمو فى المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدريج . ولكن لاشيء يفسر المرحلة التكوينية ، فضلا بالتأكيد عن الانفجارية من بعدها ، إلا ثورة المواصلات الحديثة، فحتى محمد على ، كانت الدواب هى وسيلة النقل الاساسية داخل المدينة ، والمركب الشراعى وسيلته خارجها ، كان نفس الحركة البشرية قصيرا للغاية ، ومعه كان توسع المدينة قاصرا بالضرورة . ثم بدأت سلسلة تاريخية : من الدواب إلى عربات الخيل إلى خطوط «سوارس» المنتظمة إلى الترام ثم أخيرا السيارة الخاصة والعامة . وحدود القاهرة العمرانية فى أى لحظة خلال هذه المرحلة هى وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك .

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقة : هذا النمو ، هل هو صحى سليم تماما ؟ أيسير فى أنسب خطوطه واتجاهاته الأكثر ترشيدا؟ لن نقف هنا عند قضية تضخم العاصمة فى جسم البلد حيث بلغت الخمسة ملايين من ثلاثين مليونا أو يزيد ، ولن نقول «الورم الأكبر The Great Wen» كما قال كوبت Cobbet عن لندن فى عصر الصناعة ، فمن المحتمل جدا أن القاهرة تعانى من إفراط المتروبوليتانية مثلما تعانى مصر نفسها من إفراط السكان بعامة . ولكن لعل أخطر من هذا النمو - الشيطانى نوعا ملمح ملح مزمن قد يحمل شبهة النمو السرطانى ذاته .

والإشارة هنا هى يقينا إلى توسع الرقعة المبنية على الأرض الزراعية الثمنية فى عالم جغرافى متناه يعانى من مجاعة أرضية . فكثير من أبناء القاهرة يذكرون ولاشك فى مدى عمرهم آلاف الافدنة الزراعية فى شبرا والجيزة (بمعناها الواسع) وكيف كانت طرق المواصلات والترام تمضى لاميال وسط مزارع ومشاتل الفواكه والزهور والخضروات الكثيفة، ظلت تتضاءل وتنكمش بالتدريج وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المبانى . ولكن هذا كله تحول اليوم إلى ميان كثيفة ونفيت الزراعة إلى آفاق بالغة التطوح والبعد . وإذا كان هذا لايصدق على لسان النمو فى اتجاه مصر الجديدة فهو للأسف صادق على شعبته الثانية فى اتجاه عين شمس حيث لايحاذى امتداد العمران حافة المزروع وإنما يترامى عليه ، لايجاوره بل يجاوزه .

إن المدينة تأكل سكانها كما يقال ، ولكنها هنا تأكل أرضها أيضا ، فهى من قوارض الأرض الزراعية ، وبشراهة ذلك . وقد آن أن يكون الرمل للعمران والطين للزراعة ، وفى شمال شرق القاهرة تجاه العباسية ومدينة نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب ، بينما قد يكمن الحل بعد ذلك فى الضواحى المنفصلة فيزيقيا عن جسم المدينة بحيث تقوم لا فى عرض الوادى ، وإنما على حافتى الصحراوين ، خاصة على طول مخارج المدينة الاساسية فى طريقى الاسكندرية والسويس الصحراويين .

شبكة الخطة وشبكة المواصلات

حتى النظرة العابرة إلى خريطة القاهرة ، بشبكة شوارعها ومربعاتها السكنية لايمكن أن تخطئ ثلاثة ملامح بارزة فى خطة العاصمة ، أولها وجود عنصرين أساسيين يتقاسمان رقعة المدينة : تخطيط أو بالأصح لاتخطيط عشوائى هندسى مصمم منتظم فى أشكال مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو دائرية ، يمثل بدوره العنصر العصرى «الأوربى» الجديد فى تركيب المدن المصرية الذى أدخل منذ القرن الماضى فقط . وهذه الثنائية الحضارية فى مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم والجديد والأصيل والدخيل .

الملمح الثانى هو سيادة مساحة التخطيط الهندسى الحديث سيادة حاسمة بالنسبة إلى مساحة اللاتخطيط العشوائى القديم . وقد يبدو هذا غريبا نظرا لحداثة عهد التخطيط الهندسى المنتظم ، ولكنه فى الحقيقة يلخص - فى نظرة قصة - نمو المدينة الحديث حيث وجدنا أن الرقعة الكبرى من كتلة المدينة هى أساسا بنت القرن الأخير والمرحلتين التكوينية والانفجارية فى تاريخها . أضف إلي هذا أن كثيراً من عمليات التقويم والتهذيب الهندسى فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم ، مما يخفف من انتشارها وإن لم يخف آثارها . ثالثا ، وأخيرا ، فمن الواضح أن مناطق الخطة العشوائية القديمة تنحصر أساسا فى أطراف المدينة القديمة خاصة فى الشرق والجنوب ، وإن وجدت منها جيوب شاذة فى الشمال أو الوسط ، وعلى أية حال ، فإن هذا الوضع أوضح جدا فى الضفة الغربية منه فى الشرقية ، حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة ويسود التخطيط الهندسى كل الشمال . ويعنى هذا فى نفس الوقت أن القديم يرتبط بالكنتورات الأعلى من المدينة ، بعكس مناطق التخطيط الهندسى الحديث .

وهذا الملمح الأخير كله يتفق إلى حد كبير مع قانون الخطة فى المدينة المصرية عامة ، حيث نجد دائما كتلة قديمة عشوائية فى القطاع الجنوبى تقوم على ربوة صناعية مرتفعة محدبة كطبق مقلوب ، بينما تترامى تحت أقدامها فى القطاع الشمالى وعلى مستوى الأرض الطبيعى رقعة من التخطيط العصرى المنتظم . فالقطاع الجنوبى هو نواة المدينة قبل العصر الحديث ، والشمالى هو النمو الحديث فى القرن الأخير . وتتناسب مساحة كل من القطاعين إلى الآخر بحسب خط المدينة من النمو والتضخم فى الفترة الحديثة ، أى أنه كلما زاد نمو المدينة ودرجة انفجار هذا النمو قلت نسبة مساحة النواة العشوائية القديمة إلى مساحة التخطيط الهندسى الحديث والعكس .

فى ضوء هذه المؤشرات الإساسية ، يمكننا الأن أن نتتبع خطط القاهرة بشىء من تفصيل ، ولنبدأ باللاتخطيط القديم . هذا نوع من الخطة االبدائية الفطرية التى تظهر تلقائية غير عامدة ، خطة بلا تخطيط كما قد نقول ، تبرز من مجرد تجمع المبانى معا ، وهى فى جوهرها خطة القرية المصرية والتى لاتخلو تماما من منطق ، بل ومنطق هندسى ولكنه باهت بالغ التقريب ، فثمة حول الحلة طريق دائرى ولكنه غير منتظم (داير الناحية) تخرج منه إلى قلب المنطقة المبنية عشرات من الطرق الضيقة والحارات التى تنتهى إلى نهايات مسدودة فى قلب البلد ، أى أزقة مغلقة ، والتى تتلوى وتتفرع وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة أو بأخرى والعشوائية بادية لاشك فيها ، ولكن خلفها تكمن جرثومة الخطة المتشععة أو الدائرية المتشععة بصورة أو بأخرى .Radio - concentric

وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ماتنتشر فى القطاع الشرقى والجنوبى من القاهرة شرق النيل ابتداء من القاهرة القديمة والأحياء التاريخية والتقليدية باب الشعرية والأزبكية والظاهر والحسينية فى الشمال ، حتى السيدة زينب وطولون والسيدة نفيسة جنوبا . ثم تعود فتظهر فى مصر القديمة فى أقصى الجنوب ، وهذه التى تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحوارى المسدودة والتوائها وتعرجها الشديد ، الذى يضاعف منه تضرس الطرق بسبب الموضع التلى وتحولها أحيانا إلى طرق سليمة ، والذى يضاعف بدوره من كثافة المساكن والسكان ودرجة التزاحم ، والكل ينتهى إلى تيه لابرنتى من شبكة طرق لاتصلح للمواصلات الحديثة بحال . من هنا كان التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح كثير من الحارات

والشوارع ، أى بعملية فرض أو مزاوجة مفروضة بين اللاتخطيط والتخطيط ، والواقع أن هذه العملية واسعة الانتشار فى كل هذا النطاق .

ومن طريف المفارقات هنا أن نلاحظ أنه بينما تبدو أحياء شرق القاهرة ضائعة فى خطتها المضطربة العشوائية ، نجد إلى الشرق والجنوب منها توا أو وشيكا مساحات من التخطيط الهندسى النظيم الدقيق تغطى رقعة كبيرة من خريطة المدينة ، على أن هذه لاينبغى أن تخدعنا ، فإنما هى مدينة الأموات - المقابر والجبانات المترامية فى حى الخليفة وفى قايتباى والغفير - التى تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل - كما لاحظ ديزموند ستيورات بدهشة - أسماء وأرقاما !

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك ، مع نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التى يفرضها تنظيم العاصمة ، فى حى بولاق ، حيث يبدو كجزيرة شاذة وسط التخطيط الهندسى ، ثم لانلقاها بعد ذلك إلا عبر النهر فى أقصى الجنوب من الضفة الغربية ، أى فى نواة الجيزة القديمة «البندر» حيث تتنافر بوضوح صارخ مع بقية التخطيط الهندسى المنتظم إلى الشمال .

وإذ ننتقل إلى التخطيط الهندسى الحديث ، الذى يغطى بقية رقعة العاصمة فيما عدا بعض جزر وأسافين قزمية متفرقة من التخطيط العشوائى على أطراف المدينة هى القرى والعزب السابقة التى أغرقها وابتلعها المد الحديث ، كمنية السيرج وبعض العزب المبعثرة فى شمال شبرا ، وقرى كامبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور فى الضفة الغربية ، إذ ننتقل إليه نجد صورة مختلفة تماما ، بسيطة جدا ، ولكنها بالغة التعقيد جدا ، فالمدينة هنا عبارة عن موزايكو لانهائى من وحدات مساحية ذات أشكال هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل وقليلا ماتجنح إلى الدائرة أو المضلع ، ولكنها دائما خطوط هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية مماثلة فى هندسيتها . أما التعقيد فمصدره أن هذه الأشكال المنتظمة القائمة الزوايا لاتتبع فى توجيهها بالنسبة للجهات الأربع الأصلية محورا واحدا باستمرار ، كما هو الحال فى المدينة الامريكية مثلا ، وإنما تتبع حرفيا عشرات وعشرات من المحاور التى تختلف من رقعة إلى أخرى وتستقل بها كل واحدة عن الأخرى كأنها صفحة الغاز Jig - saw ومن هنا قلنا بسيطة ومعقدة فى آن واحد ، ولايستثنى من

ذلك إلا المعادى وحلوان حيث محور توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة أكثر فى كل المنطقة المبنية .

وإذا كانت المحاور القاعدية التى تحكم تلك الرقع الشطرنجية اللامتناهية متنافرة ، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطا ، بل هى من وحى وتوجيه ضابطين أساسيين : النهر ، ذلك الشريان المحورى الذى تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة ، والشوارع الرئيسية أى الطرق الشريانية التى تفتح الاحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها ..

فأما النهر فموجه حاسم وحتمى . فسواء على الضفة الشرقية أو الغربية ، ولكن على الأخيرة بالأخص ، يجرى عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسى (ممتطيا ظهر جسر الطراد عادة) يمتد بطول النهر ويحاذية كشارعى الجيزة والقصر العينى على الترتيب ، ولما كان للنهر تعرجاته ، وانحناءاته ، فإن ذلك الشارع يتبعها بأمانة ، وكذلك تفعل الشوارع الثانوية الموازية إلى الداخل . ولما كانت الشوارع العرضية عمودية على الطولية ، فإن شبكة الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير فى محاور اتجاهاتها الأصلية من قطاع إلى آخر بحسب تعرجات النهر الحاكمة .

خذ كل الضفة الغربية من الدقى حتى إمبابة ، ولن تجد لهذه القاعدة تبديلا ، وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمق سكة حديد حلوان : الشوارع الطولية تحاذى النهر ، والعرضية تتعامد عليه وعليها ، وبالمثل فى جزيرة الروضة ، حيث توازى الشوارع الطولية شاطئى الجزيرة الاثنين ، حتى إذا ضاقت الجزيرة فى الجنوب تبعت الخطة محور أحد الشاطئين دون الآخر ، فتتكون شرائح مثلثة شاذة . ونفس الشيء واضح فى فم الخليج وأبو السعود شمال مصر القديمة ، مثلما هو فى الشمال فى روض الفرج والساحل عموما .

أما عن أثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح فى الداخل ، بعيدا عن أثر النهر . فهذه تصبح العمود الفقرى الذى تركب عليه بزوايا قوائم تفاصيل الخطة الهندسية ، فإذا انحرف العمود انحرفت معه واتجهت بحسب توجيهه ، أما مسارات تلك الشرايين فتحددها المواقع النسبية بين النقط الاستراتيجية فى المدينة ، أو ربما ضوابط الموضع القديم كالترع الحفرية التى ردمت وتحولت إلى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصرى (شارع

بورسعيد الآن) والترعة البولاقية (شارع الترعة البولاقية) .

والأمثلة عديدة ، ففى شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا ، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية ، وكل تفاصيل الخطة المربعة فى الحى برمته تعكس اتجاه كل منهما ، ولكن المثل الكلاسيكى هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس ، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحى ، ففى كل هذا النطاق المترامى ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة ، ولكن على عديد من المحاور المتنافرة جدا . غير أن هذه جميعا إنما تتحدد بلدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق المترو ، الذى ينحنى ويتعرج بحسب مساره ووجهته ، والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية ، محورا يوشك أن يكون شرقيا غربيا ، بينما أن منطقة كالمطرية وعين شمس ينقلب فيها المحور إلى شمالى جنوبى ، فى حين يتعدل فيما بينهما بالتدريج كالبندول .

هذا وتمثل الزمالك النصف الشمالى من الجزيرة حالة طريفة ، ففيها يجتمع أثر النهر والشارع ليدمغا الخطة بطابع فذ . فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسى الحاكم الذى يقطع الجزيرة بين كوبرى ٢٦ يوليو (أبو العلا) وكوبرى الزمالك ، وبذلك تتقاطع الشوارع الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينها أشكالا هندسية نادرة كالمعين وشبه المنحرف ...الخ ، بينما إلى الجنوب من شارع الكوبريين تسود شبكة مربعات منتظمة تتوازى معه وتتعامد عليه نصا .

وينبغى أخيرا أن نذكر نمطا خاصا ومحليا من التخطيط الهندسى ، لايتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر مايتبع الدوائر المتقاطعة والأقواس المتداخلة . ونعنى بهذا خطة الحدائق الإنجليزية English Gardens التى تنحدر أصلا عن فن تخطيط البساتين Landscape Gardening ففى جاردن سيتى وحدائق القبة نجد خطط االشوارع كأقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز . وبقدر ماتعطى هذه من منظور معمارى فخم ومبان انسيابية فى لاندسكيب الحى ، تعطى من مشاكل المواصلات ، فهاتان المنطقتان متاهتان من أشق قطاعات العاصمة لسكانهما ولغير سكانهما على مانعلم .

وإذا نظرنا إلى مناطق التخطيط الهندسى فى العاصمة بعامة ، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط أو تنشأ فى ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطاعى مع النمو الجزئى . ولهذا فهى تترابط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة ردئية مفككة غالبا ، والأغلب أن تترك فيما بينها مساحات ، وجذاذات شاذة الشكل أو حادة الزوايا .

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر فى محاور التوجيه يخفف من تنميط الخطة ورتابة الأحياء والشوارع ، كما يعنى تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطى فرصا أكثر للتهوية والإشعاع والظل ، كما يمنع تحول المدينة إلى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلا. ولكن نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوى عن طريق المواصلات ضعيفا مفككا ، وينم عن هذا ويشى به محاولات موضعية هنا وهناك لفرض مجموعة من الشوارع المتشععة على بعض تلك الخطط الهندسية المربعة ، تتحول بها إلى شيء أشبه بالخطط الدائرية المتشععة أو قل المضلعة المتشععة ، كما فى الإسماعلية فى وسط البلد وكما فى وسط الروضة وفى العجوزة ثم السكاكينى بالظاهر ، ولكن بالاخص فى مصر الجديدة .

غير أن هذا غالبا ترقيع موضعى أو تحايل محلى ، ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعى ولصقت أجزاء خطتها إلى بعضها بالتقسيط وبلا إطار عام . فإذا أضفنا إلى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة ، مع ضخامة رقعة العاصمة عموما ، لكان حقا أن يقال إن القاهرة من المدن التى يصعب التعرف على أجزائها والحركة فيها . ولكن هذا أدخل فى باب المواصلات ، وهو ماينقلنا إلى شبكة النقل العاصمية .

رغم بعض الشوارع الرئيسية التى تحاول أن تصحح أخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء اللاتخطيط العشوائى ، إلا أننا لانستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية متشععة على مستوى العاصمة ككل . وهناك أكثر من بؤرة تتشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هى التى تتبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها ، ولعل أهمها محطة مصر حيث تخرج منها شرايين شارع شبرا جنوبا (ابراهيم سابق) ثم شارع رمسيس بوابة وعنق زجاجة كل ضواحى شمال شرق القاهرة . وتقدم العتبة بؤرة أخرى ، فميدانها

مصب لحركة شرق المدينة : شارع الجيش إلى العباسية ، شارع الموسكى - جوهر إلى الجمالية ، شارع الأزهر إلى الغورية والدراسة ، شارع القلعة إلى القلعة والخليفة ، وميدان باب اللوق والسيدة زينب بؤر أخرى .

على أن هذه الحزم المتشعبة لاتؤلف فيما بينها خطة متشعبة بمعنى الكلمة ، ولو أن الملاحظ أن شبكة خطوط الترام كانت تقليديا وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع مايرسم خطة متشعبة بارزة ، لاسيما من مركزين هما ميدانا محطة مصر والسيدة زينب .

وعدا هذا فينبغى أن نلاحظ أثر مواقع الكبارى النهرية على تقنيل شبكة المواصلات فعلى جانبى النهر فى كل من كوبرى التحرير وكوبرى الجلاء يتحدد موقع حزمة كثيفة من محاور الحركة والنقل ، بل أن كلا من هذين الميدانين يشكل فى الواقع بوابة ضفته الحقيقية على النهر ، ومثل هذا يقال عن كوبرى ٢٦ يوليو والزمالك فى الشمال ، كوبرى الجيزة والملك الصالح فى الجنوب ، بدرجات متفاوتات . والحقيقة أن مواقع هذه الكبارى المتناظرة والمترابطة ، التى هى أعناق الزجاجة الحاسمة والخانقة بين ضفتى النهر ، هى التى تحدد معظم الشرايين العرضية التى تقطع المدينة من طرف إلى طرف ، والتى تعانى القاهرة من قلتها بوضوح .

ولأن القاهرة مدينة طولية أكثر منها عرضية ، فإن أهم محاور وشرايين الحركة هى الشمالية الجنوبية التى تخترق بالضرورة قلب المدينة فيختنق بها . وهذا هو المحرك الأساسى خلف فكرة انشاء طريق دائرى يلف بأطراف المدينة دون أن يخترق قلبها ، كما يتمثل فى شارع بورسعيد ، أطول شوارع القاهرة الآن ، والذى يرتبط أساسا بشرق المدينة القديم ، وكذلك شارع صلاح سالم الذى شق حديثا .

من كل هذه الزوايا يتضح لنا بجلاء أن مشكلة المواصلات فى العاصمة لاانفصال لها عن مورفولوجيتها وهيئتها الجغرافية البحتة ، ويقف فى مقدمة هذه الضوابط الجغرافية اثنان : أولا انشطار المدينة إلى شقين أو ضفتين ، الأمر الذى يجعل على الفور من كبارى النهر أخطر نقط استراتيجية حرجة فى تدفق الرحلة اليومية إلى العمل ، ثانيا ، اتخاذ أطراف المدينة الشمالية شكل لسانين أو مثلثين ضخمين فى شبرا - روض الفرج وفى مصر

الجديدة عين شمس يتصلان بجسم المدينة فى أضيق رؤوسهما ، أى بأعناق زجاجة مختنقة على التو . وهذا النمط بارز جدا فى الحالة الأخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد يكون منفصلا إلا من عنق دقيق عند كوبرى القبة . فى كل هذه المواقع بنوعيها ، كبارى النهر وأعناق الضواحى ، تتأزم مشكلة المواصلات إلى حد الاختناق .

على أن الذى يضاعف منها أن كل تلك الأطراف فى الضفة الغربية عموما وفى شمال الضفة الشرقية هى باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل . ثم هى تتضاعف مرة أخرى كالربع المركب بطبيعة هذه الأحياء ، فإن كانت شعبية لاتملك كثافة السيارات الخاصة ، فهناك كثافة السكان العالية التى تنعكس عليها وتترجم إلى كثافة السيارات العامة (لسان كتلة شبرا روض الفرج) وإن كانت سكنا راقيا أقل كثافة سكان ، فهناك كثافة السيارات الخاصة (لسان الشمال الشرقى . والضفة الغربية) .

ولاتقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة مغزى وخطرا عن شبكة النقل الأخف . ويمكن ابتداء أن نزعم أن محطات السكك الحديدية فى المدينة المعاصرة هى بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وإنما انتقلت من السور الهامش إلى الوسط . إنها «مداخل» المدينة ولكن فى الداخل . ولعلها أكثر من صدفة أسماء «باب» الحديد و «باب» اللوق ، كأنما تلح لتذكرنا بأنها وظيفة وإن لم تكن موقعا وريثة «باب» زويلة أو «باب» النصر مثلا .

ومواقع محطات السكة الحديدية فى القاهرة استراتيجية تماما ، فمحطة مصر ، (وكوبرى الليمون التابعة) ومحطة باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية ، وتخرج منها الخطوط القومية أو خطوط الضواحى فى اتجاهات ثلاثة : شمالا وشمالا شرقا وجنوبا .

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية كالخلية العارمة لشبكات الأوتوبيس ، فهى أقطاب مغنطيسية للمواصلات عموما ونقط انقطاع وتغيير فى وسيلة المواصلات (من السيارات إلى القطار أو العكس) . غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام ، بمثل ماأن خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات حادة فى تدفق حركة المرور كما يتبلور خاصة على طول خط مترو شمال شرق القاهرة .

وقد انعكس تأزم مشكلة محطات السكك الحديدية فى المدينة فى أن التكامل

والتعايش بين القطار والسيارة تحول أخيرا إلى صراع انتصر فيه القطار فى محطة مصر حيث نقلت محطة أوتوبيسات الأقاليم بعيدا إلى أطراف المدينة فى شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين عوامل الطرد والجذب المركزية . أما فى محطة باب اللوق فيبدو أن القطار هو الذى سيخسر الحرب ، إذ تقرر مبدئيا فى مشروع خطوط الانفاق المزمع أن تنقل نهاية خط الضواحى جنوبا إلى كوبرى الملك الصالح .

من كل هذه الخيوط المعقدة إذن تنسج مشكلة المواصلات أخطبوطها الخانق المزمن فى العاصمة التى يئست نهائيا من الحلول السطحية أعنى على سطح الأرض فلجأت إلى الحلول تحت الأرضية كما تتمثل فى فكرة مترو الانفاق الذى يعكس مشروع خطته المبدئية شكل المدينة الطولى أساسا . الإ أن أن جذور المشكلة تكمن فى أكثر من قضية ، منها الفارق الحضارى : فشوارع المدينة خططت فى عصر ولعصر ماقبل السيارة وماقبل الصناعة وهى الآن تعانى بالضرورة من تصلب الشرايين واحتقان الدورة الدموية .

ولقد أثبتت تجربة العواصم الكبرى المماثلة أن خطوط الأنفاق ليست بالضرورة الكلمة الأخيرة فى القضية ، ولاتلبث مشكلة المواصلات السطحية أن تعود . فلندن وباريس تملكان خطوط انفاقهما منذ عقود وعقود ، وكذلك نيويورك ، ومشكلة المواصلات السطحية لم تزل مزمنة ، ولعل بعض الدرس المستفاد هو أن القاهرة الكبرى بحاجة حقيقية مع أو قبل الانفاق إلى عملية «هسمنة Haussmannisation» كما تسمى ، على غرار ماعرفت باريس فى السبعينات الماضية ، جرئية واسعة الخيال دون أن تكون راديكالية بتارة بالضرورة ، فتفرض على أرضية خطتها الفسيفسائية نظاما متشعبا ، متعدد البؤرات منعا لتركيز المشكلة فى نقطة واحدة من البوليفارات المحورية الشريانية ذات التوقيع الاستراتيجى بحيث تتحول هيدرولوجية النقل فى قلب المدينة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب .

كذلك لامفر من إعادة توزيع العمل والسكن فى محيط القاهرة الكبرى ، فتركيز العمل فى القلب التجارى المركزى (C. B . D كما يسميه الامريكيون) وغيابه إلى حد بعيد فى الأحياء السكنية فى الأطراف عامل جذرى وقاعدى . ولعل من الضرورى أن

يتحول قلب المدينة نفسه هو الآخر إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب ، بخلق نويات جديدة فى الأطراف كمراكز ثانوية Subcentralisation ، تخفف الضغط عن القلب المركزى وبالتالى تخفف من كثافة الرحلة إلى العمل .

التركيب الوظيفى :

المدينة أى مدينة حزمة من الوظائف فى التحليل الأخير ، وليست المؤسسات والمبانى إلا أوعية مادية لتلك الوظائف المركزية .. غير أن هذه لاتتعايش معا إلا بعد صراع على المكان ، فالوظائف تتنافس فيما بينها على الموقع والموقع الممتاز أو الأنسب من وجهة نظرها وتحصل عليه الوظيفة الأقدر التى تدفع أكثر .. ولما كانت قيم الأرض والعقارات والإيجارات أعلى ماتكون فى قلب المدينة الضيق المكتظ ، فإن وظائف المدينة تتنضد «أى تتفنط» تلقائيا بالتفاعل والشد والجذب بين مجموعة من القوى الطاردة المركزية .

Centrifugal تطرد الجاذبة المركزية Centripetal تجذب الأقوى إلى القلب ..

والوظائف مجموعتان عريضتان : وظائف عمل وانتاج كالتجارة والإدارة والصناعة ، ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه . غير أن بين المجموعتين حلقة وصل هامة هى السكن .. والسكن وظيفة بالمعنى الصحيح لاشك ، بل هو الوظيفة التى تغطى أكبر رقعة من مساحة أى مدينة فى العادة . ومصدر أهميتها أنها المفتاح والمدخل الطبيعى لوظائف الخدمات ، فهى غالبا الإطار الذى تدور فيه وتتشكل به قليلا أو كثيرا .. ومع ذلك فالسكن وظيفة من نوع خاص جدا ، وربما قلنا وظيفة سالبة تمييزا لها عن الوظائف الموجبة من انتاج أو خدمات . ولهذا فلعل من الخير لنا أن نعالجه علي حده بحسبانه طبوغرافية المدينة الاجتماعية ، حيث تمثل الوظائف الموجبة طبوغرافيتها الاقتصادية .

وفى القاهرة ، إذا بدأنا بالوظيفة التجارية التى تلعب دورا حيويا فى كيانها كعاصمة قومية فضلا عن كونها مدينة كبرى ، أمكننا أن نميز بين ثلاثة أنوع من التجارة تمثل فى الحقيقة ثلاث درجات من المركزية : فهناك أولا التجارة المركزية التى تتكدس وتتزاحم بلا هوادة فى قلب المدينة ، ويلمس القاهرى نبض التجارة المركزية فى مدينته بالتدريج من

مشارف شارع الجلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحية ، ومن شارع الجمهورية إلى العتبة من ناحية أخرى ، حتى الموسكى وما وراءه تجاه الغورية وشارع الأزهر .. الخ ، ففى هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجزئة والجملة ، السلعية والمالية ، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية .

هنا كل مراكز المؤسسات والشركات الهامة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية الضخمة التى تتجاذب حولها المحلات الصغيرة . وهذه المنطقة التجارية تمثل الجهاز العصبى المركزى للوظيفة التجارية لسكان العاصمة وأقليم العاصمة جميعا .

من أخص خصائص هذه المنطقة أن تجارة الجملة ، الأقل اتصالا بالجمهور المباشر والتى تحتاج إلى مساحات أوسع ، تنزوى نوعا إلى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفى هى بأن تقف خلفها لتغذيها وتخدمها . أما التجزئة فتعيش على الموقع الاستراتيجى البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطىء قدم صغير ولكنه حساس وباهظ الثمن أو الإيجار ، فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطة مصر وتجاه التحرير فى منطقة معروف تسودهما مخازن الجملة خاصة من قطع غيار السيارات والإطارات والأدوات الكهربية ، وفى أركان ميدان الفلكى تتركز تجارة إطارات السيارات . وفى مداخل شارع القلعة كما فى الفجالة تتركز تجارة الورق والوراقين وأدوات الكتابة . وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديمة والانتيكات .. الخ . وكل هذه شوارع قل أن يرتادها الجمهور اليومى العريض ، وهى أكثر هدوءا نسبيا من شوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت حرب وعدلى وقصر النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث لانجد إلا تجارة التجزئة الكثيفة المضطرمة بالحياة والحركة . وبينما يظهر التخصص فى خط واحد بحسب الشوارع أو المناطق فى حالة تجارة الجملة ، يغلب على تجارة التجزئة الطابع المختلط عموما ، والذى يصل إلى مداه فى المحلات الكبرى المنوعة Multiple Stores مثل شيكوريل وهانو وجاتينيو .. الخ ، وتلتصق وثيقا بعين المنطقة نصا .

من أهم الخصائص بعد هذا ، الفصل الجغرافى بين محلات التجارة العصرية والقديمة التى تختلف أيضا فى روادها ، فالأولى أكثر ارتباطا بجمهور العاصمة نفسها أولا

وبطبقاته الأكثر غنى ثانيا ، بينما يكثر فى زبائن الأخيرة أبناء أقليم المدينة من الريف المجاور أو البعيد إلى جانب الطبقات القاهرية الشعبية . فالقطاع الغربى من منطقتنا تستأثر به التجارة العصرية ، بينما تتراجع القديمة إلى القطاع الشرقى ابتداء من العتبة تقريبا ، فهنا تسود المحلات الشعبية والتقليدية ويتحول السوق إلى «سويقات» وقد يخرج من المحل إلى الرصيف ومن الرصيف إلى المتجول . كذلك يكثر التخصص بالشوارع ويزداد دور الجملة ، كما نرى فى محلات المصنوعات الجلدية والأحذية والصينى على نواصى العتبة ، وكتجارة الذهب والصياغة فى الموسكى والصاغة ، والأقمشة الخشنة وغزل الأنوال الريفية فى شارع الأزهر ، والعطارة فى الغورية .. الخ .

تلك هى تجارة القاهرة المركزية ، التى يتعدى اشعاعها حدود العاصمة ، ولكنها مع ذلك لاتحتكر كل نشاطها ، فهناك التجارة الثانوية أو المراكز الثانوية أو تجارة الأحياء التى تظهر فى مفارق الطرق الاستراتيجية فى أغلب الأحياء كنسخ مصغرة محلية - كأنها الاقمار فى فلك شمس - من منطقة التجارة المركزية ، التى تخرج منها كالاشعة فى الواقع ألسنة ممتدة على طول الشوارع الرئيسية فى المدينة تحتل المحلات التجارية جوانبها وواجهاتها ، حتى إذا تجمعت فى مفارق الطرق بعيدا عن قلب المدينة برزت من تلاحمها وتكاثفها تلك المراكز الثانوية التى تخدم الاحياء .

ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة ، وهى آلاف المحلات الصغيرة المبعثرة فى كل شوارع أو زوايا ونواصى الجيرة والاحياء السكنية ، والتى يتحدد مستواها بحسب كثافة السكان ، مثلما يتحدد مستواها بحسب الحالة الطبقية ، وعادة ماتمثل هذه مشكلة فى مناطق الهوامش والأطراف من المدينة حديثة النمو كالعجوزة الآن ، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد أو لا يظهر منها أولا إلا محلات الضروريات كالبقالة والتموين ، وتظل المنطقة خاما تعانى من نقص الخدمة التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر الخدمات التجارية الأكثر رقيا وترفيها .

من الوظيفة التجارية ننتقل منطقيا إلى الإدارية . فكعاصمة سياسية ، لها شهرة تقليدية بمركزية بيروقراطية ثقيلة ، تلعب الإدارة دورا هاما فى حياة القاهرة ، ويكفى أن أكثر من ثلث هيئة موظفى الدولة يتركز فيها ، والوظيفة الإدارية تتداعى مؤسساتها

بالطبع ، وتميل إلى التجميع الجغرافى ، كما أنها تحتاج إلى موقع مركزى دون أن يكون بالضرورة فى صميم القلب المزدحم الصاخب .

من هنا ، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركزية ناحية الجنوب والجنوب الغربى ، تمتد رقعة دولة الإدراة وتتتابع أجهزتها كأنها قشلاقات جيش الموظفين ، فابتداء من ميدان التحرير ، الذى يقف مجمعه الشاهق ليعلن كنصب تذكارى عن حدود تلك الدولة ، وفيما بين شارع القصر العينى وخط حديد حلوان ، يمتد لنحو الميل حى الوزارات والبرلمان بلا انقطاع ، ككتلة بالجملة أو ككحجر واحد ، بل وتطفو خارجها طفوح النمو والريع المركب ، حتى تصل عبر ميدان لاظوغلى إلى ميدان الجمهورية حيث كانت قاعدة الحكم طويلا .

ويلاحظ أنه يرتبط بهذه الكتلة ارتباطا صميما ومباشرا ، وظيفيا وجغرافيا ، شريحة مميزة بكاملها على الجانب الأخر من شارع القصر العينى من السفارات والقنصليات ، تتمثل فى قصر الدوبارة وجاردن سيتى التى تتصل بها مبانى الخارجية والجامعة العربية المترابطة أيضا ، هنا دولة السلك السياسى الاجنبى الذى يحتاج إلى أن يتعامل مباشرة وفورا مع دولة الموظفين المجاورة . وقديما ، وفى العصر الاستعمارى ، فلعل الكلمة الدارجة «مابين لاظوغلى وقصر الدوبارة» كانت تعبر عن علاقة أكثر من عابرة . على أن هذه الشريحة إنما ترتبط بالوظيفة الإدارية السياسية ارتباطا جزئيا ، ولكنها أساسا منطقة سكنية وليست من القلب الإدارى .

العاصمة بعد هذا هى عاصمة الصناعة المصرية أيضا ، ففيها أكبر حشد للصناعة فى البلد ، وإذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبيا فى وظائف القاهرة ، فهى منذ القدم مركز تليد للصناعة القديمة والمحلية التى تراجعت الآن كثيرا جدا فى أهميتها لتترك الصدارة المطلقة للأولى . وهذه التفرقة هى نفسها مفتاحنا للتمييز وظيفيا وجغرافيا بين الصناعة الخفيفة والثقيلة ، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والآلية . فالصناعة الثقيلة ليس لها مكان إلا على أطراف المدينة ، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم فى داخلها ولكن بعيدا عن قلبها التجارى .

على أننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة استعمالا نسبيا خاصا فيه قدر من تجاوز . فلعل من الخير ومن المقبول لاغراضنا وفى إطار المدينة المحلى الضيق أن نطلق الأولى على

الصناعات الأكثر أهمية وحجما أو وزنا فى اقتصاد أو لاندسيب المدينة ، والثانية على الأقل خطرا ومقياسا أو ثقلا . وهذا مع العلم بأنه لاصناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح فى القاهرة إلا صناعة الحديد والصلب فى حلوان .

فمن الخفيفة نجد خلية قديمة من الورش والمصانع الصغيرة والمعامل التقليدية فى بولاق والسبتية ، ترتبط غالبا بالحدادة والسمكرة وتصليح وتجميع الالات والمراكب ووابورات السكة الحديدية ، وتعتمد أحيانا على الخردة التى لها سوق تقليدية فيها (وكالة البلح) كما تعمل فى الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتداد و بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة فى القرن الماضى أيام محمد على حين استمدت «المبيضة» اسمها من صناعة تبييض الأقمشة .

وعلى الجانب الآخر الشرقى من المدينة خلف الموسكى والغورية وباب الخلق حتى السيدة زينب ، فى الجمالية والدرب الأحمر ، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة التقليدية والحديثة التى تتراوح بين معامل الغزل المتوسطة وصناعات الأغذية وتعليب الفواكه وفابريقات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية . ومن هذه الوحدات مايقوم فى بنايات أنشئت خصيصا للصناعة ، أو فى شقق أو بدرومات المساكن العادية ، وبعضها لايخضع للمواصفات والمقاييس الدقيقة للصناعة ، وبعضها نصف آلى نصف يدوى ، ومنها ماينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الأفراد من الجمهور .

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة ، التى لاتحتاج إلى رؤوس أموال أو عمال خامات ضخمة أو مساحات شاسعة ، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحتمل نسبيا ، هى وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست منعزلة عنها . ولكنها من الناحية الأخرى لايمكن أن تقوم وماقامت هنا إلا فى تضاعيف أحياء سكنية فقيرة أو شعبية ، ووجودها نفسه بين ظهرانيها واحد من عوامل خفض درجتها السكنية ، غير أنها فى النهاية من أهم مصادر الدخل والعمل للسكان ، فمن بين صفوفهم تستمد كل قوتها العاملة .

وأخيرا فإن تركز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكثافة ملموسة هو فى الحقيقة استمرار لتوطن صناعى تقليدى قديم هنا . ففى هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة كان القلب الصناعى للقاهرة الوسيطة ، بتنظيماتها ونقاباتها وأسطواتها . وصناعاتها اليوم تستمد بعضا من مسحة وخصائص صناعات الأمس ، إما متطورة أو متدهورة نوعا ، وإن كانت لاتبدى التخصص الجغرافى الذى كان يسود قديما حين كانت كل صناعة على طريقة العصور الوسطى ترتبط بشوارع أو حارات معينة لازالت مقروءة حتى اليوم فى الأسماء وإن زالت من اللاندسكيب . من هذه الأسماء - التى لم تعد اسما على مسمى بالضرورة - السروجية والسيوفية وسوق السلاح حول القلعة ، ثم المغربلين والكحكيين والفحامين والنحاسين ....الخ .

فإذا انتقلنا الآن إلى الصناعة الثقيلة (تجاوزا أو نسبيا) التى هى أحدث جدا من الناحية التاريخية ، فإنما ننتقل من وسط جسم المدينة إلى أقاصى أطرافها والهوامش . فالصناعة الثقيلة وظيفة هامشية جدا بالضرورة ، تقذف بها عوامل الطرد المركزية إلى حواف المجمع ، بل على انفصال فيزيقى عنه إن أمكن ، بينما لاتجد هى نفسها أى فائدة أو منطق فى السعى إلى داخله .

وإذا كانت هذه الصناعات حديثة تاريخيا وعصرية تكنولوجيا ، فثمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائية ومحلية بالضرورة تبدى على قلة أهميتها تركزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنعزل بصرامة عن جسم المدينة ، ولعل المثل الكلاسيكى هو صناعة التحجير والجير والطوب .. فمحاجر القاهرة وجياراتها مركزة كلها بالضرورة فى الجنوب الشرقى فى جبل المقطم أساسا ، حيث تتتابع عشرات وعشرات منها فى نطاق واضح ، ينحصر بين كنتورى ١٠٠ - ٨٠ مترا فى الشرق ، ٦٥ - ٣٥ مترا فى الغرب ، ويمتد من مشارف الجبل الأحمر حتى نهاية الخليفة ، كما يتناثر عدد منها فى تلول عين الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التى تعرف نشاطا هاما فى صناعة وتجارة الجير والجبس . وليس من الصدفة أن كثيرا من مبانى شرق القاهرة هى من الحجر أكثر منها من الطوب . وعلى النقيض تماما من المحاجر التى ترتبط بالجبل ، ترتبط القمائن وصناعة الطوب بالجزر النيلية وطميها ، فجزيرة الذهب غابة من المضارب ، وهى

المورد الأول للعاصمة .

وما دمنا هنا فى دائرة المحاجر ، فقد يمكن أن نمضى منطقيا إلى الجنوب ، إلى طرة والمعصرة ، لنجد استمرارا وظيفيا ، ولكن مع انقطاع جغرافى جزئى وتكنولوجى تام ؛ للصناعة المرتبطة بالمحاجر . فمنذ أوائل القرن قامت هنا وحدات عصرية وعلى أضخم نطاق لصناعة الاسمنت والجير ، طفرت فى العقود والسنين الأخيرة لتصبح أعظم صرح فى هذا الخط ، لاعلى مستوى الجمهورية وإنما على مستوى القارة ، يغطى انتاجه الاستهلاك القومى ويجد فائضا هاما للتصدير ، والوحدتان ، اللتان تستوعبان بضعة آلاف من الأيدى العاملة واللتان تعدان بمقياسهما وطبيعة منتجاتهما من أثقل الصناعات ، هما فى الحقيقة مستعمرتان منتجاتهما من أثقل الصناعات ، هما فى الحقيقة مستعمرتان ضخمتان من التخصص المطلق بالضرورة الحتمية ، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة تماما ، ولكنهما تدخلان فى صميم وشقوق كل نسيج فيه .

غير أننا فى الحقيقة إذا قلنا الصناعة الثقيلة فقد قلنا شبرا فى الشمال ، وحلوان فى الجنوب ، هاتان قطبا الصناعة الثقيلة ، وأعظم منقطتين صناعيتين منفردتين فى مصر عموما ، وتبلغ قيمة رأس المال الذى وضع فى صرح كل منهما الآن بضعه مئات من الملايين من الجنيهات والقطب الشمالى أقدمهما ، بدأ بمضاربات الرأسمالية والبورجوازية الاجنبية والمتمصرة ، والمصرية إبان الحرب الثانية للكسب الاستغلالى السريع والصريح فى صناعات الغزل والنسيج والتريكو والجوارب خاصة والقطنية أساسا ، فى مصانع متهالكة وفى خطة عشوائية وفى ظروف عمالية سيئة ، ولكن النواة التى بدأت منفصلة جغرافيا فى شبرا نمت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى توسعت زحفا : إلى الشمال حتى تخطت حدود القليوبية وضواحى مصر ، وإلى الجنوب عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه ، كما انتقلت بعد ذلك من القطنيات إلى الصوفيات والحريريات والبلاستيك والنايلون ، كما نمت لنفسها صناعات تكميلية مساعدة من المعدنيات والإطارات ..الخ ، لتؤلف منطقة صناعية منوعة ومتكاملة أفقيا ورأسيا بمعنى الكلمة .

وبقوة هذا القطب الصناعى ، انبثقت أخيرا نويات صناعية أحدث على طول الترعة

الاسماعيلية وشارع بورسعيد ، زحفت حتى مسطرد ، وترتبط بصناعات تعبئة الغاز والكاوتشوك .. الخ ، ومن قبل قفزت حول ذلك القطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن العشش والصفيح لا زالت دون المستوى كثيرا وتمثل خلية من التزاحم الخير ، تجمع فى محيطها بضع مئات من الآلاف من العمال وأسرهم .

هذا ، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الأم نوية حديثة متواضعة وزنا وحجما ولكنها تناظرها عبر النهر فى شمال الضفة الغربية فى امبابة ، تدور أساسا حول النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجوارب ، تخلقت حولها هى الأخرى مستعمرة عمالية ، مدينة االعمال بامبابة ، إلا أنها مخططة هندسيا على نمط مستطيل ، وقد تقاطرت بجوارها أخيرا محطات القوى والمياة .. الخ .

والآن ، ومن جهة جغرافية المدينة ، فلا شك أن منطق توقيع هذه المناطق الصناعية الغلابة يدعو إلى التساؤل ، لسببين أساسيين ، أولهما أنها تقوم فى صميم الأرض الزراعية الثمينة . فهى وإن نقلت بالتحول المهنى عشرات ألالاف من الفلاحين إلى عمال فقد عقمت الآلاف من أجود الأراضى ، كما أصبحت نفاياتها مصدر تلوث خطير لمياه المصارف والترع ، السبب الثانى أن هذا الموقع الشمالى يأتى على النقيض تماما من كل منطق التخطيط فى بلد تسوده الرياح الشمالية وتطلب لذاتها كتيار منعش شتاء ملطف صيفا «البحرى» فهى تلقى بكل دخانها وافرازاتها على سماء المدينة إلى الجنوب ، ولعل هذا وحده يفسر كيف خفضت القيمة السكنية لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة وأحياء العمال فى القطاع الشمالى من المدينة هنا فى شبرا وروض الفرج والساحل فى وقت كان يمكن فيه أن يستقطب السكن الراقى باجتماع الواجهة الشمالية مع الجبهة المائية على النيل .

غير أنه ما من شك أن الذى يفسر هذا التوقيع الخاطىء سكنيا هو الميزة الموقعية اقتصاديا ، فهنا فى الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل وأسرع اتصال مع كتلة الدلتا الغنية مصدر خامها وغذائها الأول وممر التصدير والاستيراد الخارجى . لقد تغلبت مصالح الانتاج على السكن ، ومصالح صاحب رأس المال «قبل التأميم» على صاحب العقار .

وإذ ننتقل إلى حلوان القطب الجنوبى نجد المسرح مختلفا والقصة أحدث بكثير . فهنا

ومنذ عقد تقريبا غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية منفصلة ، سكنية سياحية ، ترقد هادئة حول عيونها المعدينة كمدينة من مدن المياه Spa town لترتفع الأفران العالية إلى جانب ينابيعها المعدنية ، هذه أول قلعة لصناعة الحديد والصلب ، قاعدة الصناعات جميعا ، بدأت على خام أسوان والنقل النهرى وتتحول إلى خام الواحات البحرية والخط الحديدى ، ففى أحضان وادى حوف زرعت غابة من المصانع والمداخن والأفران تترامى لبضعة أميال وتعمل على خط انتاج واحد كسير متحرك لتنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات والآلات المعدنية وقطع الغيار وأسياخ التسليح ، عدا صناعة السيارات تصنيعا وتجميعا ، وعدا الصناعات الحربية والادوات المنزلية الحديثة ، إلخ .

والعملية هنا انقلاب عمرانى كامل بقدر ما هى انقلاب اقتصادى . فأمام حلوان الآن نمو سكانى ومدنى ضخم ، ومن المحتمل أن تنمو حتى تتقابل أو تتقارب يوما مع حدود كتلة القاهرة المبنية (٤) مثلما دخلت الآن أكثر من أى وقت مضى فى فلكها الاقتصادى ، وإذا كان التوقيع الصناعى هنا سليما من وجهة مناخ القاهرة ، فإن مستقبل مدينة الاستشفاء والعيون يصعب التنبؤ به فى قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة ، ولكن المحقق على أية حال أن ليس ثمة مبرر جغرافى طاغ أو واضح لذلك التوقيع أصلا ، إلا أن يكون القرب من مجمع العاصمة ، الأمر الذى يعود بنا إلى قضية إفراط المتروبوليتانية عموما .

من وظائف الانتاج ندلف إلى وظائف الخدمات ، وأولها التعليم ، وللوظيفة التعليمية فى القاهرة دور خاص إن لم يكون فريدا حقا ، إذ أن جمهورها من الطلبة يقدر بنحو المليون أى خمس السكان ، ولامفر لذلك من أن تبرز مؤسساتها بإلحاح فى لاندسكيب المدينة . والقاعدة الاصولية أن هذه توزيعها الجغرافى يتناسب مع درجتها التعليمية بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكلا عنقوديا أو شجريا أو هرميا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها فى الإقليم ، فمدارس الصغار - وهى أساسا خدمات جيرة - أشدها انتشارا وانتشارا ، وتوزيعها سكنى بحت أى يرتبط بالأحياء السكنية ، أما المدارس الثانوية فخدمات أحياء أكثر منها خدمات جيرة ضيقة ، وهى لذلك أقل عددا وأكثر تباعدا ، ولكنها سكنية أيضا بالضرورة .

وإذا كان ثمة استثناء للقاعدة فهو الاستثناء الذى يؤكدها ، وهو التعليم الاجنبى ، فمدارس الجاليات والارساليات الاجنبية كلها تتقاطر (أو كانت) على قلب العاصمة التجارى فهى كروادها أدنى إلى المسحة التجارية وأشبه أن تكون عناصر مقتلعة ، مثال ذلك المدرسة اليونانية والالمانية والفرنسية قرب الفلكى «وربما أضفنا تجاوزا الجامعة الامريكية غير بعيد» ومدرسة الارسالية الامريكية قرب حديقة الازبكية .. الخ .

أما التعليم العالى فهو وحده الذى يبدى تركزا جغرافيا حاسما أولا ، وانفصالا مطلقا عن السكن ثانيا ، وارتباطا حتميا بأطراف المدينة ثالثا ، وبأطرافها الحديثة الراقية العصرية رابعا ، ذلك أن الجامعة تحتاج إلى مساحات شاسعة تتزايد أبدا مثلما تحتاج إلى الهدوء المطلق ، وهذا يتجسم فى ترامى جامعة القاهرة فى الجيزة الحديثة على مدى مابين كوبرى الجامعة وكوبرى الجيزة وبعمق كبير ، ثم فى انتشار جامعة عين شمس من الزعفران إلى العباسية ، وكل منهما - يلاحظ - على ضلوع العاصمة غربا وشرقا ، كأنهما قطبان إلا أنهما قطبان متنافران موقعا مع قطبى الصناعة فى الشمال والجنوب .

وتمثل جامعة الأزهر توقيعا مختلفا ، فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفى حضن الجبل من الشرق تقريبا ، ولكنها فى أقدم قطاع فى المدينة ، ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية إلى جانب نوعيتها الدينية ، غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزا عن التوسع المساحى فى وسط ذلك الحى الشعبى المكتظ ، الذى يضفى عليها أيضا جوا وطابعا خاصا ، ولهذا فقد بدأت أخيرا تتوسع بمعاهدها ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيدا فى مدينة نصر .

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه التاريخى فى الحركة من الجامعات الدينية القديمة إلى الجامعات العلمانية الحديثة . فالانتقال الحضارى الذى حدث خلال القرن الأخير من التعليم الدينى التقليدى إلى التعليم المدنى العصرى يلخصه ويرمز إليه الانتقال من جامعة الأزهر إلى جامعة القاهرة . من أقصى شرق المدينة المرتفعة ، العتيقة الفقيرة إلى أقصى غربها السهل المحدث الغنى .وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينهما ، تتوسط المدينة عبر هذا القوس جغرافيا واجتماعيا كما تتوسطه تعليميا ، وتتمثل فى مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالى والمعاهد المجاورة والمماثلة فى منطقة المنيرة «وذلك قبل

ضمها أخيرا إلى الجامعات الحديثة ، حركة بندول كاملة نحو التغريب حضارة ونحو الغرب موقعا !

هذا ، ويختلف التعليم الفنى فى توقيعه ، فهو عادة - وبأنواعه المختلفة - يرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الأحياء المعنية ، فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الأحياء الصناعية ، مثلما يتبلور فى سلسلة متراصة من المدارس الفنية الصناعية وورشها فى بولاق ترسانة الصناعة التقليدية قديما (مدارس الصناعات الزخرفية والميكانيكية سابقا ، ورشة القطن ..الخ) ويمكن فى معنى خاص أن نمد هذه القاعدة إلى بعض مؤسسات التعليم الجامعى الطبى بحسبان المستشفيات الجامعية تعليما وممارسة معا . فمن أدعى الظاهرات لفتا للنظر تلك الكوكبة العديدة والمتلاصقة من المستشفيات الجامعية لكلية الطب ومعامل الابحاث ، التى تتركز فى شمال الروضة وعلى طول القصر العينى من كوبرى المنيل إلى فم الخليج ، والتى تحدد قدرها فيما يبدو منذ بدأ القصر العينى أيام كلوت . فهذه الدائرة الملمومة لايمكن إلا أن ترتبط فى الذهن على الفور ، كما هى فى الواقع ، بأكبر تجمع فى الجمهورية للأطباء وللعيادات الطبية فى دائرة باب اللوق وماحولها ، وليس يفصل بينهما إلا شارع القصر العينى نفسه .

ثم ننتقل إلى وظيفة تعد - عكس التعليمية - مناقضة ومضادة للسكنية إلى حد كبير ، وهى الصحية ، فالمستشفيات بمساحاتها الكبيرة وحاجتها إلى الهدوء وبأخطار العدوى ، لامكان لها وسط كتلة السكان عموما . وإذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية ، فالموقع السائد والمفضل غالبا والمحتم أحيانا هو الأطراف ، وربما الأطراف المنعزلة تماما ، وقد نضيف : فى منصرف الرياح كما فى العجوزة ومستشفاها العام الكبير ، وكما فى العباسية حيث مستعمرة كاملة من المستشفيات العقلية والحميات والصدرية فضلا عن كورنتينة بيطرية ومعمل السيرم (قارن على العكس مستشفى الحميات فى شمال إمبابة) .

وترتبط المدافن ، من زاوية معينة ، بالوظيفة الصحية ، فتصدق شروطها على توقيعها بصورة أشد صرامة . وجنوب شرق القاهرة فى منصرف الريا ح ، عاليا على التل المكشوف ، بعيدا عن الطين فى الرمل الجاف ، منفصلا عن جسم المدينة ، هو مدينة

الاموات . والواقع أن سلسلة الجبانات ، من الغفير شمالا حتى الإمام الشافعى جنوبا ، تؤلف نطاقا متصلا تقريبا ينحصر بين نطاق المحاجر والجيارت شرقا وبين سلسلة التلول المتقدمة غربا «قطع المرأة ، زينهم ، عين الصيرة» التى بدورها تشكل نطاقا متقطعا يعزلها ويعزله عن السكن .

ومع ذلك ففى الإمام الشافعى أخذ الحى يزحف على الميت ويكاد يطارده ، وتداخلت مدينة الاحياء مع مدينة الموتى بصورة قابضة للنفوس ، وإذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التى تحمل أسماء وأرقاما ، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى ، فالطريف أن العزل فيها على الأساس الدينى والجنسى أكثر صرامة بكل تأكيد عنه فى مدينة الاحياء ، فلكل طائفة جباناتها الخاصة المطلقة .

تبقى أخيرا بعض وظايف تتشابه مع الصحية فى طبيعتها الهامشية ، إلا أنها لاتبدو كذلك دائما فى القاهرة ، فالمؤسسات الترفيهية - الرياضية منها - كالملاعب والأندية الكبرى هى بطبيعتها مسرفة فى حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء الطلق والأماكن المكشوفة . ولأن جمهورها فى ظل المستوى الحضارى والاجتماعى الراهن مازال محصورا غالبا فى الطبقات القادرة فهى تجنح عادة إلى أن تقع فى القطاعات الراقية من الأطراف . (اعتبر مثلا نادى الصيد خلف الدقى ، والزمالك والترسانة فى مداخل العجوزة، واستاد القاهرة فى مدينة نصر ، ثم نادى سباق الخيل والبولو فى مصر الجديدة ...الخ) .

ولقد نظن أن هذا يصدق أيضا على نادى الجزيرة والأهلى اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبى ويمثلان معا أكثر رقعة رياضية متصلة فى العاصمة .. ولكن الحقيقة أن هذا الموقع أقرب شىء إلى قلب المدينة ، وموقعه هنا إنما يمثل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجمود anachronism من وجهة ديناميات نمو المدن . وهذا نقد قد يثير حساسيات عاطفية عند الكثيرين ، ولكنه يفهم على ضوء الماضى . فقد أنشأ الاستعمار البريطانى هذه الحلبة لتكون حكرا ارستقراطيا له أولا ، وحين أنشأها فى العقود الأولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد بندر الجيزة ، وكان هذا الموقع هو بالفعل أطراف مدينة القاهرة الهامشية ، ولكن نمو القاهرة عامة والضفة الغربية خاصة سرعان ما غمره فى مدة واحتواه حتى أصبح الآن قريبا جدا من قلب المدينة ، وهناك أدلة متزايدة على أنه قد بدأ

بالفعل يعرقل النمو الطبيعى لهذا القلب ، كما أن تدفق رواده عامل اضطراب موسمى خطير فى مواصلات العاصمة ، والأسوأ من هذا أنه يعقم الاستغلال الأمثل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لاتقدر فى موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو . فكل أصابع التخطيط الرشيد تشير إليه إما كمنطقة سكن راق أو كسكن تجارى عالمى «فنادق سياحية الخ» أو كخلية ومجمع للقاعات الدولية وصالات المؤتمرات والمعارض العالمية الخ . والمنطق التخطيطى يقضى بأن يهاجر إلى الهوامش الجديدة . مثلا كمنطقة نادى الصيد . أما القول بأن هذا يحرم القاهرة من «رئة» طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان ، فليس ردا ، لأن النيل بشعبتيه هنا هو الرئة الطبيعية الكاملة ، والحاجة إلى رئة إنما تزداد كلما بعدنا عن النهر خاصة فى أعماق الضفة الشرقية المكتظة ، ثم إن الزمالك والروضة مناطق مبنية ولم تخنق أحدا ، وفوق هذا كله ، فما نعرف عاصمة كبرى فى العالم تتوسطها جزر نهرية دون أن تستغلها أكثف وأمثل استغلال عمرانى : مثلا السيتى فى باريس ، مانهاتن فى نيويورك .

الطبوغرافيا الاجتماعية :

لاتنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية ، إن لم ترادفها تقريبا ، والطبوغرافيا الاجتماعية - والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسى جاستون باردية - هى أساسا التوزيع الجغرافى للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة . وإذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوڤيتية لا تعرف إلا التباين الجغرافى على أساس الانتاج ، بينما تتجانس فيها الاحياء السكنية تماما ، فإن طبوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وإن كانت لمدينة عاصمة فى دولة تتحول إلى الاشتراكية ، فنحن هنا ازاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من الاقطاع والرأسمالية ، ولامفر لنا لوقت طويل من أن نميز بين الاحياء السكنية على الأساس الطبقى اقتصاديا واجتماعيا ، بل إن المسكن مازال هو التعبير المادى الاخير عن الطبقة ، والمنزل هو المنزلة ، والمكان هو المكانة .

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها ، بل والجنسية والطائفة أيضا ، أى الاقليات عموما ، وهذه لها مكانها فى عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة ، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة ، على أن من الواضح تماما أن وزن الجنسية والطائفة

ثانوى وضئيل للغاية بالقياس إلى الطبقة ، فهذه وحدها هى أهم المتغيرات وأبرز المعالم فى الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ آلاف السنين. وهذا على العكس تماما من مدينة كالمدينة الامريكية تمتاز أساسا ، كمدينة بلا تاريخ وكمدينة هجرة ، بالتنافر الاثنولوجى وتعدد الاجناس والقوميات ، ويأخذ فيها الجنس بعدا لايقل خطرا عن الطبقة فى تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية .

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم ، يمكن أن نحصر الاحياء السكنية الفقيرة فى أقصى جنوب المدينة وأقصى شرقها ثم أقصى شمالها مع جزيرة كبيرة فى وسطها ، أقصى الجنوب : فى أجزاء البندر ؛ وأجزاء من مصر القديمة حتى السيدة زينب ، مرورا بأبو السعود والمدابغ والمذبح والبغالة . أقصى الشرق : من الخليفة حتى الحسينية ، مرورا بالقلعة والدرب الاحمر والجمالية . أقصى الشمال : فى أطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وما حولها وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشماشرجى ، ثم إزاءها فى امبابة. أما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية . وثمة أحيانا جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية فى الضفة الغربية من القرى المبتلعة كبولاق الدكرور أو مدن العمال مثل بين السرايات .

هذه بوضوح هى إما أحياء شعبية قديمة التاريخ ، والمبانى عتيقة الطرز ، بعضها متهالك أو آيل للسقوط ، شوارعها بلا تخطيط أو عشوائية الخطة ، ترتفع فيها كثافة المساكن بسبب أزقتها وحواريها الضيقة ، كما ترتفع فيها كثافة السكان وحجم الأسرة ، أو هى أحياء عمالية حديثة التاريخ ولكنها منخفضة المستوى ، وقد ترتبط ببعض البورجوازية الصغيرة من صغار الموظفين أو الحرفيين ، وأوضح من ذلك كله أن السكن يختلط فيها بدرجة أو بأخرى بالصناعة والتجارة كما رأينا . وهى أخيرا وفى أغلبها ، ولكن ليس دائما ، تقوم على الأرض المرتفعة ذات الكنتورات العالية .

وعلى طرف النقيض ، تتوزع الاحياء السكنية الفنية ، بدرجاتها المتفاوتة ، فى معظم النطاق الاقرب إلى النهر من الضفة الغربية شمال الجيزة البندر ، ثم فى الجزء الاكبر من جزيرة الروضة ، ثم فى الجزيرة (الزمالك) ، ثم نعبر إلى جاردن سيتى وقصر الدوبارة ، لنقفز بعدها بعيدا إلى مصر الجديدة وأجزاء كثيرة من الشمال الشرقى ابتداء من القبة ،

وأبرز مايجمع بين هذه الاحياء جغرافيا أنها باستثناء مصر الجديدة وماحولها تقع فى الأراضى المنخفضة على جبهة النيل .

وفى الاعم الاغلب تقتصر هذه الأحياء على السكن ، فإن غزتها وظائف أخرى فبعض المؤسسات الإدارية كالوزارات أو المصالح ، ولكن بوجه أخص البعثات الدبلوماسية ، فهذه تتقاطر على أحياء السكن الراقى ، فنجد أغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعشش فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقى وحديثا وأخيرا العجوزة ، على أن السفارات والهيئات الديبلوماسية إذا عدت دليلا على السكن الراقى ، فهذا يقتصر على الأحياء السكنية القريبة من قلب البلد نسبيا ، أما المتطوحة منها فتخلو منها ، كمصر الجديدة .

أما اللاندسكيب المدنى السائد هنا فهو العمارات العالية وأحيانا الناطحات الصغيرة ، ودائما فى عمارة عصرية حديثة . أما الفيللات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة أراضى البناء على الأرض السوداء حيث لابد من الحد الأقصى من الاستغلال بالكثافة الرأسية ، وهنا نستطيع أن نرى كيف أن «جاردن سيتى» مثلا اسم على غير مسمى ، بل وسخرية من فكرة «الجاردن سيتى» المعروفة فى أوربا منذ هوارد ، فهى غابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيللات فى بحر من الحدائق ، ولكن الفيللا تعود فتسود على الرمل فى مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى حيث تملك ترف الانسياح الافقى .

أما السكان ، فهذه هى المحل المختار للطبقات الموجهة والمسيطرة والأكثر دخولا وترفيها وترفا . وقد حدثت هنا منذ الثورة عملية «تتابع سكنى» تغير فيها نوع السكان، فقد كانت هذه هى المواطن المفضلة لسكنى الاقليات الأوربية الاستعمارية ، مثلما كان المقر الطبيعى للأسر الاقطاعية والرأسمالية والصناعيين من الوطنيين ، ومع تصفية هذا وذاك ، حلت بالتدريج صفوف من الطبقة الوسطى العليا والمثقفة الوطنية ، مما بدأ يخفف نوعا من حدة تضاريس الطبوغرافيا الاجتماعية فى العاصمة .

فيما بين النقيضين ، الاحياء الرقيقة الحال والفنية ، تنتشر أو تنحشر الاحياء المتوسطة التى يتفق أنها متوسطة فى الموقع الجغرافى مثلما هى فى الموقع الاجتماعى والتى تتألف غالبا من الطبقات الوسطى المعتدلة أو العادية من الموظفين والمثقفين أو

التجار . فعدا الجانب الخلفى من الضفة الغربية ، تغلب فى فم الخليج وتسود فى المنيرة وكل ماحولها وخلفها حتى حدود الأحياء المتواضعة فى شرق المدينة ، ثم تغلب على كل النطاق العرضى الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكينى حتى الوايلى والعباسية ثم فى قطاعات كبيرة من ضواحى الشمال الشرقى . هذا عدا القطاع الأكبر والجنوبى من شبرا وروض الفرج . ومن الملاحظ أن خطوط السكك الحديدية داخل المدينة ، قومية كانت أو ضواحى ، تخترق عادة هذه المناطق السكنية المتوسطة (أو الفقيرة) حيث تخلق على طولها مناطق موبوءة وتخفض قيمتها الاجتماعية .

ماذا تعنى هذه الخريطة الاجتماعية ، وهل من مغزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث ؟

لعل أبرز مايلاحظ هو أن مبدأ الفصل السكنى سائد بعامة ، بمعنى أن لكل طبقة منطقة ، ولكل منطقة طبقة . وأهم من ذلك أن الفصل السكنى سلمى ، بمعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى كما تتدرج فى السلم الاجتماعى ، وبتفسير أوضح فإن منطقتى الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقين ، بل الأغلب أن تندفع بينهما منطقة طبقة وسطى تفصل بينهما ، كما فى منتصف المدينة على محور جاردن سيتى- المنيرة القلعة - .

وقد تتقارب أو تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة ، بل إن هذا أحيانا مطلوب لأن القوة الضخمة العاملة فى الخدمة الشخصية والمنزلية فى إحداهماتستمد من الأخرى ، ولكن لابد حينئذ من حاجز طبيعى فاصل ، كالنيل بين الزمالك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعى ويصل إلى قمته ، وحيث تصل المسافة الاجتماعية إلى أقصاها ، والمسافة الجغرافية إلى أدناها ، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى أكثر اعتدالا ..

أما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة فيمكن أن نتساءل أولا عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة ، ففى كثير من المدن الأوربية والأمريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياسا طرديا للمستوى الاجتماعى والانتماء الطبقى ، كلما زادت ارتفع ، والعكس ، ولكن القاهرة لا تحقق هذه القاعدة الا [illegible]

المعادى ، وكل ضاحية منفصلة أو شبه منفصلة ، وتعارضها أكثر «جاردن سيتى والزمالك من ناحية ، وإمبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية أخرى» .

فإذا بحثنا عن احتمال آخر ، كالأرض العالية والمنخفضة فى المدن الغربية الباردة ، حيث الأرض المنخفضة مصايد للضباب والرطوبة ، والأرض العالية صحية جافة ومشرقة ، وحيث بالتالى «العالى اجتماعيا هو العالى جغرافيا» وجدنا أنفسا فى القاهرة إزاء قلب رئيسى وإن يكن غير كامل للقاعدة . فشرق المدينة الأعلى تضاريسيا يحمل الأحياء الرقيقة الحال والعمالية والشعبية ، بينما غرب المدينة المنخفض على النيل وفى جزره وعلى ضفته الغربية يحتشد السكن الغنى ، ولكن يعود فيشذ قطاع كبير فى بولاق والشمال (شبرا الخيمة وماحولها وامبابة) فهذه كلها أرض منخفضة وأحياء متواضعة .

هل هو إذن ضبط الرياح السائدة ؟ فقد لوحظ فى الغرب أن السكن الراقى يسعى إلى أن يحتكر غرب المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة ، طازجة غير ملوثة . وفى مصر الحارة ، فليس ثمة شك أن الرياح البحرية السائدة مرغوبة جدا وأن لها ثمنا يدفع فى قيم الأرض أو الإيجار ، وإن المدينة الإقليمية المصرية المتوسطة تنجذب أحياؤها السكنية الراقية إلى الشمال كما تنجذب البوصلة المغنطيسية . ولكننا فى القاهرة نصطدم بشبرا الصناعية وإمبابة وأحيائها االمتواضعة فى أقصى الشمال ، وإن كانت مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى مكشوفة للرياح «البحرى» منطقة بلا عائق .

لايبقى إلا أن تكون جاذبية النهر ، فللجبهة المائية المنعشة فى مناخ حار ، فضلا عن المنظر الطبيعى فى اللاندسكيب ، مغنطيسية لامفر منها على السكن الراقى . ومن الواضح أن هذا يمثل جزءا كبيرا من الحقيقة فى القاهرة : اعتبر معظم الضفة الغربية ، ثم الجزيرتين ، فجاردن سيتى ، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة ، حيث تقع بولاق وإمبابة على النهر بينما تقع مصر الجديدة أبعد ماتكون عنه ، على أن هذا لايقلل من أهمية عامل الجبهة المائية ، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة ، راقية كانت أو متوسطة ، يطل على النهر عادة أفضل المساكن وتقل درجتها كلما بعدنا عنه ... وفى الضفة الشرقية مثلا ينخفض مستوى السكن كلما بعدنا عن النيل فى انحدار مستمر من الراقى إلى المتوسط إلى الفقير ، ولانقول إلى سكن الموتى فى أقصى الشرق !

والخلاصة الصافية ؟ لاشك أن كل هذه العوامل تعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئيا ، وليس فيها مفتاح أحادى . والسبب أن القاهرة مدينة معقدة مركبة بحكم تاريخها الطويل وتنوع أرضيتها كموضع مابين الجبل والنهر وما بين الصحراء والوادى . ولكن من الممكن أن نقول إن ضابط الجبهة المائية فيها أقوى بعامة من عامل الرياح البحرية ، وهذا بدوره أقوى من عامل التضاريس .

ذلك إذن وجه المجتمع القاهرى فى بيته الجغرافى أو بيئته الطبيعية . غير أنه أن حددت الطبقة ملامحه الأساسية ، فإن الأقليات تكملها بلمسات نهائية ترصع صفحته دون أن تخرج عن الفرشة القاعدية . ولقد حدثت تغييرات هامة فى العقد الأخير فى حجم وتوزيع الاقليات الأجنبية والجاليات الأوربية نتيجة «للخروج الأبيض» مع التحرير ، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشرات من الألاف ، وإن قد كانت دائما أقل منها فى الاسكندرية بالذات .

ففى مرحلة الأوج فى الثلاثينات والأربعينات ، كانت أبرز حقيقة عن توزيع الأوربيين فى القاهرة تجمعهم فى النصف الشمالى منها ، أو بالاحرى غيابهم تماما من النصف الجنوبى ، وفى النصف الشمالى كان توزيعهم أقرب إلى قلب المدينة ، وكان مركز الثقل فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة وفى الإسماعيلية والتوفيقيه ، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان فى كثير من الشياخات . وحول هاتين النواتين ، وعدا الزمالك ، كانت تجمعاتهم تستمر متصلة ابتداء من الفرنساوى حتى باب اللوق ومن غمرة حتى شبرا ، وفى كثير من شياخات هذه الحلقة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان .

وأهم معانى هذا التوزيع هى ، أولا ميل طبيعى للاقليات والجاليات الأجنبية إلى التجمع وعدم الانتشار تماما بين الوطنيين . ثانيا ، انجذاب «غير مألوف عند الوطنيين ولكنه منطقى للاجانب» نحو قلب المدينة التجارى حيث يربطون بين العمل والسكن أو حيث يظهر السكن التجارى (الفنادق والبنسيونات الخ) . ثالثا ، يتبع توزيع الاقليات الاجنبية الإطار الطبقى العام ، فكانت العناصر الأكثر غنى ونفوذا منهم تربط بالأحياء السكنية الراقية كجاردن سيتى والزمالك ، والعناصر الأقل مكانة بالأحياء البورجوازية المتوسطة ، ولكنها فى جميع الحالات كانت بعيدة تماما عن الأحياء الوطنية الفقيرة . رابعا

، ارتبطت بعض الجاليات ببعض المناطق تقليديا أو بصفة خاصة : الانجليز بجاردن سيتى والزمالك عدا المعادى المنفصلة ، واليونانيون والطليان واللفانتيون بمداخل شبرا تجاه المحطة «الشوام فى قصورة الشوام خاصة» .

خامسا ، وأخيرا ، فرغم بعض ملامح الانعزال النسبى عن الوطنيين ، فلا مجال قط للحديث عن عزل سكنى صارم بالمعنى المعروف فى العواصم الاستعمارية فى إفريقيا أو آسيا ، بل إن بعضا من العناصر الأقل ثراء من الأوربيين اندمج تماما فى كتلة السكن الوطنى ، ومن الناحية الأخرى لم تظهر قط مدينة أوربية مقفلة بالمعنى الاستعمارى ، وحتى الانجليز رغم السيطرة الاستعمارية وتقاليد العنجهية الانجلوسكسونية تحايلوا على العزل السكنى المقنع من خلال الانفصال الجغرافى الطبيعى حين نموا لأنفسهم ضاحية المعادى ولكنهم فشلوا ، وغزتها العناصر الوطنية ، وهذا كله يذهب ليؤكد أن الفارق الحضارى والجنسى بين الأوربيين والمصريين كان دائما على غير ماعرف الاستعمار فى كثير من بلاد العالم الثالث ، وأنه عجز عن أن يخلق فى مصر أى شبهة من «حاجز لونى» ما .

أما من الناحية الدينية ، فقد كانت هذه الجاليات الأوربية ذات التركزات غير العادية فى قلب المدينة أو قربه تتخذ مؤسساتها الدينية فى ذلك القلب التجارى أو قريبا منه ، وذلك بصورة شاذة غير مألوفة ، وليس فى الأحياء السكنية كما هى القاعدة فى مؤسسات الديانات الوطنية . وحتى بعد تصفية هذه الأقليات والجاليات ، فما زالت مؤسساتهم تحتشد فى ذلك الأوسط التجارى : مثلا كاتدرائية الانجليز بماسبرو ، كاتدرائية سان جوزيف بعماد الدين ، عديد الكنائس فى باب اللوق والفلكى وكنيس الاسرائيليين فى شارع عدلى .. الخ .

هيكل العاصمة : إقليم القاهرة الكبرى

من المسلم به أن القاهرة ، بتاريخها الألفى العريق ، مدينة ناضجة مورفولجيا من وجهة جغرافية المدن ، بمعنى أنها مرت بمراحل وأدوار عديدة من التجربة والخطأ ، وإعادة التجربة والتصحيح ، حتى استقرت واستوت خطتها وبنيتها العامة على أنسب تنضيد وترتيب ممكن لبيئتها من الداخل .

ومن هذه الزاوية ، فالمفروض أن تكشف القاهرة لدارسها بسهولة عن هيكلها الأساسى وعن الخطوط العريضة فى مورفولوجيتها ، غير أن الواقع أن القاهرة مدينة معقدة نوعا من حيث الموضع الجغرافى الذى يحتويها . فاختناقها بتلال المقطم فى الشرق منع بصرامة توسعها فى هذا الجانب وفرض على نموها اتجاها أحاديا ، أو قل نصفيا نحو الشمال والغرب أو الشمال الغربى ، وبذلك حد من حريتها فى الانطلاق نحو النمط الدائرى وحصرها فى نمط مروحى بالتقريب .

ونقول النمط الدائرى لأنه ، باستثناءات ليست قليلة الأهمية ومع تحفظات معينة ، فإن المدينة أى مدينة حين تترك لنفسها فى بيئة جغرافية سهلية تخلو من العقبات الطبيعية فإنها فى الأعم الأغلب تميل بالنظرية إلى أن تنمو حول قلبها ، كجذوع الأشجار ، على شكل حلقات متتابعة نحو الأطراف ، وتكتسب محيطا دائريا أو شبه ذلك ، والسؤال هو : ما النمط ، ما المنطق البنائى القائد أو الحاكم الذى يمكن أن نستشفه من خلال وجه القاهرة بملامحه وعناصره ووظائفه وديناميانه التى طالعنا وحللنا ؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القاعدة الذى ارتكزت عليه القاهرة فى نموها ، وبينما لم يعد اجتيازها للنيل عقبة على الإطلاق ، على الأقل منذ القرن الماضى ، فقد ظل محور المقطم منذ البداية إلى اليوم عقبة طبيعية صارمة . ومن الناحية التاريخية ، وعبر العصور الوسطى ، فإن أحضان المقطم المباشرة التى نشأت فيها هى بطبيعة الحال «النواة النووية» للمدينة مثلما كانت قلبها المركزى فى مراحل طويلة من حياتها .

وقد كان نمط توزيع الوظائف والمبانى والسكان فى مدن العصور الوسطى خاصة الإسلامية منها ، بسيطا فى جوهره يتركز - كما يلح علينا ديكنسون - حول السلطان : فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به قصور الأمراء والكبراء ثم التجار ثم العامة وصغار الناس حتى إذا وصلنا إلى هوامش المدينة ساد الزراع العاملون فى حقول المدينة وأرباضها .

وشىء من هذا توحى به القاهرة العربية الإسلامية . فدائما منذ الفتح العربى وقبل أن تبنى القلعة فى الأيوبية ولكن بعدها بصورة أقطع ، كان مقر الحكم لصيقا أو يكاد

بسفوح المقطم فى الشرق ، ومن حوله كانت تترى أحياء الأعوان والمقربين وأهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين ثم العامة بينما كانت بطائح وشطوط النيل التى ترصعها المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة إلى أخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة ، وأحيانا ملاعب ومتنزهات ...الخ .

وقد يمكن أن نعبر عن هذا فنيا بأن نقول إن نمط القاهرة العربية المورفولوجى كان حلقيا وإنما بالتقريب على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم . وربما أضفنا أن الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر - مع كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع - بهيكل مدينة شيكاغو المشهور فى دراسات المدن ، حيث يتركز القلب على جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة الحلقية من الداخل نظاما نصفيا وليس دائريا كاملا .

ولكن قاهرة اليوم أشد ماتكون تعقيدا بالمقارنة . فمنذ القرن الماضى أخذت المدينة تهجر ظلال المقطم ووظائفها الحيوية تصرف بالتدريج من قلبها القديم فى شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب . ولقد بدأت هذه الأعراض مع محمد على ، ولكنها تسارعت بعده منذ اسماعيل خاصة ، ولم تكف منذئذ حتى الآن . مقر الحكم ، مثلا كان القلعة أيام محمد على ولكنه هو نفسه بدأ بشتل وزرع أجهزة إدارة جديدة وعديدة فى منطقة الأزبكية و إلى أن نقل إسماعيل الحكم فيها نهائيا إلى عابدين ، هذا مجرد مثال دال ، ولكن كل تاريخ القاهرة الحديثة إنما هو عمليتان إيكولوجيتان رئيسيتان : من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب ، وإعادة توزيع وترتيب لأجهزتها وأنسجتها وأعضائها ووظائفها واستعمالات الأرض فيها من الداخل .

ولاشك أن أبرز المظاهر المؤثرة والملموسة لديناميكا القاهرة كما تنبثق من تفاعل هاتين العمليتين ، هى هجرة القلب التجارى المركزى . وهى نتيجة حتمية . فقلب أى مدينة هو فى الحقيقة «عاصمتها» ، هو فى المدينة كالعاصمة فى الدولة تماما . وكما أن هناك علاقة إيقاع غير منظورة ولكنها محققة ، بين حدود الدولة السياسية وبين العاصمة السياسية ، ينبضان معا ويتأرجحان معا ، فكذلك قلب المدينة : يرتبط وثيقا ويتذبذب حثيثا مع حدود المنطقة المبنية ، كلما اتسعت حدود هذه ، كلما تحتم على القلب أن يتحرك معها ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطة . هكذا القاهرة : كما نمت حدودها نحو الشمال والغرب

أساساً ، نحو الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها .

ومن السهل ربما أن نتتبع حركة القلب التاريخية هذه من الأزهر والموسكى فى مطالع القرن ، إلى العتبة والأزبكية بعد ذلك إلى الإسماعيلية خلال فترة الحرب الثانية وماقبلها، وبمزيد من التحديد فقد كان كليرجيه فى الثلاثينات يعد عين قلب القاهرة التجارى النابض حول شارع عماد الدين . ومنذ مابعد الحرب وصلت الحركة إلى نقطة التقاء شارع ٢٦يوليو وطلعت حرب «فؤاد وسليمان سابقا» ومن بعدها انحدر الزحف على طول شارع طلعت حرب وقصر النيل وتجاه ميدان التحرير حتى شارفه ، وحتى أصبح هذا من مراكز قلب القاهرة وقطب الجاذبية فيها ، حيث أخذت المؤسسات والأجهزة والهيئات المختلفة من تجارية ومراكز خدمات وإدارات وشركات وفنادق كبرى تتقاطر حوله ، وأخذ هو يكتسب صبغة أكثر وأكثر تجارية وحركية .

وكمقياس اختبار أو كرموز لهذه الحركة ، اعتبر هجرة فندق شبرد من الازبكية ، والجامعة العربية من الداخل ، إلى النيل ، ثم قيام الهيلتون ، ولاتنس قيام المجمع قبل الجميع ، كذلك لاحظ زحف وانتقال منطقة الأضواء Bright Light Area (المسارح ودور السينما واللهو وشرنقة المقاهى والمطاعم الكثيفة التى تغلفها ..الخ) من شارع عماد الدين فى الثلاثينات إلى شارع طلعت حرب الآن ..

لقد تمت دورة بندول كاملة فى حياة المدينة وقلبها ، انتقل فيها من سند الجبل إلى شاطىء النهر ، ومن ضلوع المقطم إلى ضفاف النيل ، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة إلى قلب تحولت مدينته من مدينة اكروبوليس إلى مدينة فيضية ، ومن موضع منحدر تلى إلى موضع يمتطى نهرا ويضع قدما فى ضفة وقدما فى الأخرى حتى أصبح هذا هو محور المدينة الجديد .

ولاشك أن هذا الزحف الهادف إنما يتم فى جزء كبير منه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمرانى الضخم ، والمتفجر أخيرا ، على الضفة الغربية بالذات وحيث ينتظر المزيد من النمو والانسياح . وهو أيضا يحقق النظرية الأصولية من أن القلب يزحف نحو الأحياء السكنية الراقية ، كذلك فإنه يدل على أن القلب برقعته المزدحمة الحالية بدأ يكتظ ويضيق

بمؤسساته وأجهزته الكثيفة والكدسة ، بمثل ما إن بعض هذه المؤسسات بدأت هى الأخرى تضج وتضيق بضغطه وتسعى إلى أطرافه الأكثر هدوءا واتساعا لأغراضها ، خذمثلادور الصحافة الكبرى فى القاهرة : تجد منذ مدة هذا الاتجاه إلى الابتعاد عن عين القلب إلى هوامشة ، ابتداء من قيام دار أخبار اليوم فى شارع الصحافة ، إلى انتقال الأهرام اخيراً جدا إلى شارع الجلاء ... ومن قبل يلاحظ الموقع الهامشى من القلب فى بقية دور الصحف: الجمهورية تجاه الازبكية ، الشعب فى القصر العينى ، الهلال فى المبتديان ... الخ كذلك مرافق الإدارة المركزية ، لم يعد القلب الإدارى يتسع للمزيد منها وبدأ يلفظ نموه بعيدا ، وأحيانا خارج القلب تماما ، كوزارة الزراعة بالدقى من قبل ووزارة الإصلاح الزراعى من بعد ، وكعدد آخر من الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية .

هذا ، وإذا كان لنا أن نحدس المستقبل من مؤشرات الحاضر ، فإن ضغط القلب من أجل المكان سيفرض نفسه قريبا حين يصطدم بالنيل ومن ورائه خاصة ملاعب الجزيرة التى هى حقيقة استغلال سيىء ومسرف لموقع محورى والتى قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعى . ولكنه صراع وظيفى لايمكن أن تكون الغلبة فيه إلا للقلب فى النهاية . وقد لايكون قيام فندق عالمى تجارى ضخم - شيراتون أو سفنكس ؟ - على رأس الدقى السكنى فى قفزة ضفدعية ضخمة وشاذة بلا مغزى ودلالة على هذا الإحباط الذى تفرضه تلك الملاعب مؤقتا .

كذلك فإن كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة ، التى تبدو اليوم ناضجة تماما لجراحة كبرى فى إزالة العشش ، هى بالقوة الاحتياطى والرصيد الطبيعى لتوسع القلب فى بعض جوانبة فى المستقبل . وهى قد بدأت بالفعل تتلقى أو تستشعر وقع بعض فروعه وامتداداته على طول كورنيش النيل فى ماسبرو (مبنى الإذاعة والتليفزيون مثلا الخ) .

هذا عن حركة القلب غربا ، والمهم والسؤال الآن : ما الذى حدث للمنطقة التى هاجر وانحسر عنها القلب بالتدريج؟ إنها ببساطة - ولكن ببسالة إذ أن المقاومة تستمر عقودا - تفقد بالتدريج أجهزة وعناصر التجارة والنشاط التجارى التى هى مقومات القلب وصفته الأساسية . فالقلة من محلاتها ومؤسساتها الأكثر طموحا والأقدر على التكيف الحديث تغادره إلى القلب الجديد كلية أو قد تتخذ لنفسها فيه فروعا عصرية ، والكثرة تذوى

وتذبل بالتدريج ويتضاءل روادها ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتمادا على ولاء جمهور واسع الدائرة ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات ، وقد تتحول إلى مخازن وموردين للجملة أو متاجر محلية للحى أو حتى للجيرة ، وفى نهاية الدورة قد تصفى أعمالها فإذا بمبانيها ومنشآتها تتحول إلى استعمالات جديدة ، سكنية أساسا ، أو قد تعدل لتستقبل ورشا صناعية صغيرة لبعض الحرفيين أو الممولين ...إلخ وبعبارة أخرى ، تتحول المنطقة التى تراجع عنها القلب القديم إلى مجرد أطراف وهوامش أو رقع من جسم المدينة العادى بحلقاته الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية أو الحلقة الداخلية كما تسمى .

وعلى الفور فإن هذه العملية تضع أيدينا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة ، وتعد قلبا للعملية الشائعة فى ديناميات ونمو أقاليم وحلقات المدينة الداخلية . فالقاعدة مع نمو المدينة أن يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به ، فتتحول وظائفها من خليط من السكن والصناعة الخفيفة عادة إلى التجارة ولكن التحول هنا فى المناطق الشرقية من القاهرة والتى كانت القلب القديم ، تم على العكس بتراجع وانحسار القلب ، وبالتحول من التجارة إلى السكن المختلط بالصناعة .

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنا تكون ضيقة مختنقة نوعا وربما غير مكتملة الخصائص والمعالم فى هذه القطاعات ، خاصة إذا ماقورنت بمثيلاتها على الجوانب وفى القطاعات الأخرى من المدينة ، ولاتتسع إلا مع المزيد من تراجع القلب وانحساره عنها. والنتيجة الصافية أن مورفولوجية حلقات المدينة الداخلية التى كانت فى العصور الوسطى نصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائرى بصورة عامة ، إلا أنه هنا منبعج مختنق فى شكل مروحى .

هذه العملية كلها لاشك بدأت فى القرن الماضى حين أخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضارى الجديد . ولاجدال أنها ظلت تشتد مع شدتها ، ولكننا لانستطيع أن نتتبعها بالعين المجردة إلا فى الاجيال والعقود الأخيرة حيث دخلت مرحلة النضج . هذا ويلاحظ فى تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضاربات والنشاطات المالية الاستعمارية والجاليات الأوربية على اقتصاديات المدينة قبل التحرير ، وخاصة فى قاهرة مابين الحربين ،

أعطت منافسة خطيرة وقاتلة لمشروعات وأعمال ومتاجر البورجوازية الوطنية المتوسطة والصغيرة مثلما نشرت تطلعات الأوربة والتغريب بين الجماهير.. الخ .

وهذا كله أتى لحساب القلب العصرى «الأوربي» الحديث ، وعلى حساب القلب التقليدى الآفل ، وساعد على تصفيته وذبوله بالتدريج . والكثيرون مازالوا يذكرون أو لاشك سيتذكرون حالات إفلاس كثير من محلات الموسكى والأزهر ...الخ فى تلك الفترة، أما اكتمال الهجرة من القلب القديم إلى الحديث فيرمز إليه ببلاغة تحول مركز الثقل والأهمية من شارع الموسكى إلى شارع طلعت حرب ، ومن ميدان العتبة إلى ميدان التحرير ، وفى الوقت الحالى ، أصبح فى قلب القاهرة التجارى . وفى الوقت الحالى ، أصبح القلب القديم الموسكى والأزهر والغورية ..الخ يلعب فى كيان المدينة دورا أقل حيوية وثقلا مما كان فى الماضى ، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الأخير للقديم فى كل شىء ..

وعلى الفور ، لن يخطئ أحد أن ها هنا ثنائية أساسية فى قلب العاصمة التجارى : قلب جديد نابض متنام ، عصرى حديث الطراز فى الغرب ، وقلب قديم عتيق الطراز ،آفل وفى انكماش مطرد ، فى الشرق . وهذه الثنائية التى يعرفها قلب كل مدينة هامة فى العالم الثالث ، تلخص وترمز إلى الثنائية الحضارية القاعدية التى تميز هذا العالم الثالث منذ عصر الاستعمار الأوربى والاحتكاك الحضارى مع الغرب . ومن الطريف فى القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بين الموقع الجغرافى والموقع الحضارى داخل هذه الثنائية : فالقلب الشرقى القديم فى الشرق ، والغربى الحديث فى الغرب ! على أن هذه الثنائية مرحلية فى جوهرها وإن طال الأمد ، ولنا أن نتوقع ، ولكن ليس قبل عقود على الأقل ، أن يذوب القلب القديم فى الجديد فى نهاية المطاف مع اكتمال التحول الحضارى والتقدم المادى .

وهنا وفى النهاية تفرض نفسها مقابلة لها مغزاها وطرافتها ، وذلك مابين هذه الثنائية الحضارية ومارأيناه من قبل من تجانس بشرى فى السكان . فإذا كان قلب القاهرة يلخص التنافر الحضارى ، فإن تركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشرى . وهذا وذاك على العكس تماما من المدينة الامريكية : تنافر جنسى وبشرى حاد وصارخ ، وتجانس حضارى إلى درجة التنميط الممل ربما . ولعلنا لانغالى إذا قلنا فى هذا الصدد إن القاهرة أقدم

عواصم العالم القديم ترمز له وتلخصه مثلما ترمز للعالم الجديد وتلخصه مدينة من أحدث عواصمه كواشنطن أو نيويورك ..

